الاستغفار وثمراته

في القرآن والسنة

تأليف

الدكتور/ سليمان الصادق البيرة

مكة المكرمة

i j k

È@ÅÆœçÇ¨È #Y$ÿî šc %. ¼çR) ¼a/‘ (rëÿøFO$aMtù ¼

ûüŸ/r ÆA°qØ'Î /äšŸ‰ðßr ÇÈ #Y#‘ßB /aæ ä$J¡ 9$

» ÇÈ #•»k¥& ðaš©@ègdr ¸M»Z_ ðaš©@ègdr

[سورة نوح]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وبعد : فهذا بحث بعنوان ((الاستغفار وثمراته في القرآن والسنة)) وكان أصل مادته محاضرات أُلقيت على طلاَّب الدراسات العليا بقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى في سنوات مضت في السنة المنهجية للماجستير في مادة (التفسير الموضوعي) التي أقوم بتدريسها.

ولا شك أن للاستغفار شأنه وأثره في حياة صاحبه، وحياة المجتمع، وحياة الأمة بأسرها، فهو بداية العودة والإنابة إلى الله تعالى. وحقائق القرآن الكريم في موضوع الاستغفار تبين أنه سبيل الحياة المستقرة، العامرة بمعاني الخير والفضل والتي تحفظ فيها الحقوق لأصحابها، ويؤتي فيها كل ذي فضل فضله، فلا يتجاسر فيها اللؤماء على أقدار الكرماء وأهل الفضل، ولا يحصد فيها غبي كسلان ثمرة عمل وجهد ذكي عامل نشط، كما يفتح الله تعالى في هذه الحياة بركات من السماء والأرض فتتيسر الأرزاق، بنزول المطر المدرار النافع المفيد، وينشأ عن ذلك رغد الحياة وجمالها واستقرارها، وتزداد الأمة قوة بكثرة أموالها، وقوة رجالها. ولا شك أن الاستغفار الذي ينشأ عنه كل هذا

الخير هو الاستغفار الذي يتعانق فيه اللسان مع القلب، والعقل، والشعور فينشأ عن ذلك عمل بالجوارح يعكس حقيقة الاستغفار وأثره.

أما الاستغفار بمجرد اللسان مع قول وفعل ما يخالفه، فهو استغفار العابثين. والغرض من هذا البحث هو محاولة الكشف عن حقائق القرآن الخالدة في موضوع الاستغفار، وأهميته، وآثاره القريبة والبعيدة، الظاهرة والباطنة، وذلك حسب الوسع المتاح، وقد بين القرآن هذا الموضوع بياناً شافياً تاماً، وكشف عن حقائقه، وأبعاده، وأوقاته، وصفات أصحابه، وفوائده. وإنه آن لهذه الأمة أن تعود من غربتها إلى أصالتها وحقائق المعرفة في كتاب ربها وفي سنة رسوله r ، لتستضيء بأنوارها، وهي تسير في طريق العودة إلى الله تعالى خالقها، وناصرها ومعزّها، وإن المستقبل بإذن الله تعالى هو مستقبل الإسلام العظيم وهو مستقبل (المعرفة القرآنية) في حقائقها الخالدة وآفاقها المتعددة، وآثارها العظيمة. والسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام هي بيان للقرآن الكريم، وهي التطبيق المعصوم للهداية القرآنية. فالسنة من القرآن بمنزلة الرأس من الجسد، وقد كان للاستغفار في السنة النبوية شأن كبير، فجاءت أحاديث كثيرة تبين فضل الاستغفار وثمرته، ووقته، وألفاظه، وصيغه، وذلك كله يصب في دائرة البيان لما جاء في القرآن الكريم في موضوع الاستغفار، والحق أن موضوع ((الاستغفار في السنة النبوية)) لا زال في حاجة إلى دراسة مستقلة، فهو موضوع واسع الأرجاء، ولعل أحداً من أهل العلم أو طلابه يقوم بدراسة

موضوع ((الاستغفار في السنة النبوية)).

وفي الختام فإني أحب التأكيد على حقيقة أراها هامة متصلة بهذا البحث، وهي أن هذا البحث لا يعدو أن يكون مجرد محاولة خطؤها أكثر من صوابها، وللقارئ غنمها، وعلى كاتبها غرمها، والله تعالى أسأل أن يتجاوز عني بعفوه ويشملني بستره، ويسامحني بفضله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على إمام المستغفرين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه الفقير إلى ربه
د/ سليمان الصادق البيرة
في ١/٠٦/١٤٢٦هـ
العزيزية - مكة المكرمة

أهمية الاستغفار وشأنه في حياة المسلم

إن موضوع الاستغفار موضوعٌ له شأنه وأثره في حياة المسلم. والحديث في هذا الموضوع يطول ولا يمكن حصره، وإذا كان الاستغفار هو سفينة النجاة فإن الذين يفرون إليها طلباً للنجاة تختلف أحوالهم، ولذلك فإننا سنحاول الحديث عن أهمية الاستغفار وشأنه في حياة المسلم من خلال النقاط التالية:

(١) الاستغفار بابٌ واسع من أبواب الرحمة الربانية الواسعة والكثيرة، فتحه الله تعالى لعباده رحمة ورفقاً بهم،

(٢) وهو يعكس مدى الصلة بين المسلم وربه سبحانه وتعالى، والصلات مبنية على معرفة الصفات. فالمسلم يعرف أن صفته هي التقصير والخطأ، وأنَّ من صفات ربه المغفرة والتجاوز والرحمة، وأن ربه وحده هو الذي يغفر الذنوب، ومغفرته سبحانه مبذولة لعباده المطَّرحين بين يديه، المقرين في ساحة عفوه وفضله بذنوبهم، فالاستغفار طريق العبودية لله تعالى والإقبال عليه، فالمستكبرون عن فضل الله ومغفرته لا أمل لهم في نوال مغفرة الله تعالى، وذلك أن الاستكبار باب الشرك الواسع، والاستغفار عبادة لله تعالى، والمستكبرون عن عبادته سبحانه مأواهم النار وبئس القرار، قال تعالى: bqèz‰‹™ 'ÎŠ$6ä ôã brÇÉGó„šú ï‰$bÎ¼

وباب المغفرة مفتوح لكل مذنب ما لم يكن مشركاً[١] مات على شركه، قال الله تعالى: [٢].

(٣) إن لفتح باب الأمل في مغفرة الله تعالى وعفوه أمام المسلم أثراً وفاعلية في حياته وحركته في الحياة، فما أضيق الحياة لولا فسحة الأمل، والمسلم وهو يشعر أن أمله كبير في مغفرة الله وعفوه فإن ذلك يمنحه قدرة فائقة على تجاوز آثار المعصية، فيمضي نشيطاً في سيره، متفائلاً بيومه وغده، لا تفتُّ في عضده شدائد الحياة وصعابها، يتذكر قول ربه الغفور الرحيم في كتابه الكريم:

---

(١) سورة غافر: (٦٠).
(٢) سورة النساء: (٤٨).

[illegible] (١) فتشرق نفسه بالأمل، وهو يعلم أن له رباً كريماً، يغفر الذنوب، ويعفو عن السيئات، فيلين قلبه، وترق مشاعره، ويقبل على ربه طاعة له، وعملاً بما يرضيه – سبحانه وتعالى – ، متجاوزاً لآثار المعصية، وظلماتها.

(٤) والاستغفار عطاءٌ كريم من الله لعباده، ومنحة جليلة يتحرك المسلم في ساحتهما الواسعة، يتجدد أمله، وتقوى عزيمته على السير في طريق الصلاح، والعودة إلى الله الرؤوف، الرحيم، فلو وقف المذنب عند ذنبه، ولا أمل له في المغفرة لقادته نفسه اليائسة إلى وادي اليأس، والقنوط السحيق، الرهيب، ولتساوى عنده الجرم، والجرمان، والذنب الواحد والألف، ولأصبح انحرافه وإجرامه لا يقفان عند حد. ولعل ذلك بعض ما دلت عليه قصة ذلك الرجل في بني إسرائيل الذي قتل تسعاً وتسعين رقبة(٢)، فأراد أن يتوب فذهب إلى عابد غير عالم يشرح له أمره، فقنَّطه من رحمة الله التي وسعت كل

---

(١) سورة الزمر: (٥٣).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء (٥٤) حديث (٣٤٧٠) (١٧٩/٤) ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القائل وإن كثر قتله، حديث (٢٧٦٦) (٢١١٨/٤) من طرق عن شعبة وهشام الدستوائي كليهما عن قتادة عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن النبي r بألفاظ متقاربة.

شيء، وأيَّسه من مغفرة الله الواسعة لكل ذنب سوى الشرك بالله تعالى(١)، فأظلمت الدنيا في وجه ذلك الرجل على يدي ذلك العابد الذي عرف ظاهر العبادة، ولكنه لم يكن عنده فقه لسعة رحمة الله تعالى، وكأنه وضع مفاتيح رحمة الله ومغفرته في يده، وكأنه قاس رحمة الله تعالى على رحمته هو، وبمثل هذا الرجل لا زالت الأمة مبتلاة، فكم من إنسان قنَّطوه من رحمة ربه، وكم من شاب كان يمكن إصلاحه وتوجيهه كانوا سبباً في انحرافه، وماذا كانت النتيجة لموقف ذلك العابد؟ لقد كانت نتيجة خطيرة بالنسبة إليه أولاً، فقد قام ذلك الرجل الذي سبق له وأن قتل تسعاً وتسعين رقبةً، فاستل سيفه وقتل به ذلك العابد. فأكمل به مائة رقبة، وكانت نتيجة خطيرة بالنسبة إلى الرجل ثانياً، فلو وجد أمامه في تلك اللحظة عشرات من المقنطين من رحمة الله أمثال ذلك العابد لحصد رؤوسهم في الحال. ولكن رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيءٍ أدركت ذلك الرجل وهو هائمٌ على وجهه وقد أظلمت الدنيا أمامه، فدُلَّ على عالمٍ شرح الله صدره بالفهم، والحكمة، فذهب إليه، وشرح له قصته، فلمّا سمع العالم من الرَّجل قصته شجَّعه على التوبة إلى الله التواب الرحيم، موضحاً له أن باب التوبة مفتوح للتائبين، وأنه لا أحد يحول بينه وبين ربه ليتوب إليه، فلمَّا سمع الرجل مقالة العالم هدأت ثورته، واطمأنت نفسه، وشعر بالأمل في رحمة الله تسري في جوانحه، وقوي طمعه

(١) إذا لم يتب صاحبه منه قبل موته.

في مغفرة ربه، وبدأ يتحرك لإصلاح ما فسد، فقصد – بناءً على نصيحة العالم – قريةً فيها قومٌ يعبدون الله، ليعيش معهم ويتقوى بصحبتهم على الطاعة، وفي الطريق توفَّاه الله، وأدركته رحمته الواسعة.

(٥) والاستغفار يعكس مدى عناية الله تبارك وتعالى بعبده المسلم حيث لم يتركه يواجه آثار ومشاكل معاصيه وأخطائه، بل هيأ له العلاج الناجح، والدواء النافع لتلك الآثار، والمشاكل. والمتأمل في رحمة الله تعالى يرى عجباً حين يدرك أن الله تعالى قد يسَّر جميع الأسباب التي تُعين كل مذنب على هجر الذنب، وتركه والإقبال عليه – سبحانه وتعالى بالاستغفار والتوبة –، وذلك كله، وسواه تربية للمسلم على أن يكون أمله في ربه عظيماً، فمهما عظمت ذنوبه فمغفرة ربه أوسع منها، ورحمته جل وعلا هي أرجى له من عمله، وإن المرء لو تُرك لحاله يعالج آثار ذنوبه وأخطائه لهلك وأهلك غيره، فالعقل البشري بغير هدي من الله يهديه يتيه في بيداء الخرافة والضلال، ويرتكس في حمأة الشعوذة، والسحر، والكهانة، وكراسي الاعتراف، وصكوك الغفران، وعبادة وتعظيم غير الله.

وإنه ما مِنْ شيءٍ يحدثُ في حياة المسلم إلا وله في الإسلام حل، وجواب، وعلاج، وليس عيباً أن يخطيء المسلمُ، ولكن العيب أن يتمادى في الخطأ – والخطأ يقود إلى خطأٍ آخر –، ولا يمد يده إلى حبل النجاة الممدود من الرب العفو، الغفور، الودود، ويمسك بهذا الحبل بقوة، وعزم، حتى ينجو

من الهلاك والخسران، ويقبل على ربه مستغفراً تائباً ضارعاً مطَّرِحاً بين يديه معترفاً بما أصاب من ذنوب وخطايا، وذلك الحبل هو الاستغفار، من تعلَّق به وداوم على ذلك، صلح أمرُه، وأفلح في دنياه وأخراه.

(٦) والاستغفار مدرسة تربوية بالغة الأثر في التهذيب والتقويم والإصلاح تؤتي أطيب الثمار في تقويم السلوك، وتهذيب النُّفوس وإشاعة الأمل فيها بحياة مليئة بالثقة في رحمة الله تعالى ومغفرته، وذلك من شأنه أن يجعل المسلم ينظر إلى الحاضر، والمستقبل نظرة ثقة واستبشار وتفاؤل، فالذنب لا ينبغي أن يوقف المسلم، ويجمد حركته، فيصبح شبحاً لا حركة فيه، قوةً سالبةً في المجتمع يعصف به الشيطان، ويلوح به في وديان اليأس والقُنوط من رحمة الله، فيحوله إلى جندي من جنوده يسخره لخدمته، وتلك هي النهاية الخاسرة في هذه الحياة، والعياذ بالله تعالى. ولذلك كان الاستغفار هو الزَّاد الذي يتجددُ به المسلم المذنب ويتجاوز ظُلْمة الشعور بعقدة الذنب إلى نور الشعور بمدى سعة رحمة الله ومغفرته.

(٧) والاستغفار بهذا يحُدُّ من انتشار الجريمة في المجتمع، واستشراء الفساد والرذيلة فيه، فالمستغفر لربه على خير، ويُرجى له النجاة؛ لأنه علم أن له رباً غفوراً، يغفر الذنوب، فالمستغفر لربه من ذنبه، قد استيقظ ضميره واستنار قلبه، وأشرقت نفسه بمعاني الرجوع إلى الله تعالى فهجر الذنب، ولهج إلى ربه يستغفره ويرجو رحمته، وعفوه، وغفرانه، فهو إنسان قد رمى

الانحراف وراء ظهره، وأقبل مسرعاً على ربه ودخل على ساحة التوبة، والمغفرة من باب الاستغفار الواسع، فتحول بذلك إلى فرد صالح في مجتمعه، فدل ذلك على أن الاستغفار عامل هام من عوامل الحد من انتشار الجريمة والرذيلة في المجتمع الإسلامي.

(٨) والاستغفار من أبواب الدخول على الله تعالى، ومناجاته، وطلب مغفرته ورحمته.

فالإحساس بثقل الخطيئة دليل على الخير في نفس المسلم. فالرغبة في الخلاص من إصر الخطيئة أمرٌ فطريٌّ في النفس المسلمة.

وإيمان المسلم بأن له رباً كريماً يغفر الذنوب، يرجع إليه ويقف على باب فضله، وإحسانه، يرجو مغفرته، دليل على خيرية المسلم، ولعل هذا المعنى يدل عليه قول المصطفى r فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد، فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد، فأذنب، فقال: أي رب: اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك)(١).

---

(١) رواه مسلم (٢١١٢/٤) برقم (٢٧٥٨).

ويتميز المسلم بإيمانه بأن له رباً كريماً يغفر الذنوب عن غيره من غير المسلمين الذين لا دين لهم يهديهم إلى الحق، فترى المسلم مطمئناً في حركته وهو على بصيرة ووضوح بأن ربه وحده هو الذي يغفر الذنب، بينما ترى هذا الغير تائهاً حائراً في بيداء الضلال والانحراف، يلجأ إلى بشرٍ مثله يطلُب منه أن يمنحه المغفرة، ويعترف لهذا البشر بما ارتكب من ذنوب، وذلك أمرٌ معروفٌ مشاهد عند طوائف من المسيحيين وهو ما يسمى عندهم بـ(كرسي الاعتراف)، حيث تحدد الكنيسة موعداً للمذنب الذي رغب ذلك، وفي الموعد المحدد في أحد أيام الأسبوع يأتي المذنب ويجلس بجوار غيره من المذنبين والمذنبات الذين ينتظرون دورهم للجلوس على (كرسي الاعتراف) ليعترفوا للكاهن بكل شيءٍ اقترفوه، وبعد أن يسمع منهم اعترافهم يمنحهم المغفرة نيابة عن الرب حسب زعمهم الكاذب.

وقد شاهدت هذا الأمر الذي لم أكن أصدقه قبل، فتعجبت أشد العجب من ذلك، وتساءلت: كيف يمكن أن يُذل إنسانٌ نفسه بهذا الصورة المهينة لإنسان آخر مثله، ويعترف له بذنوبه، وهو يعلم في قرارة نفسه، أن هذا الكاهن بشر مثله، وقد يأتي من القبائح ما لا يعلمه إلا الله، وما تنشره بعض الصحف عن أحوال الكهنة والقساوسة خاصةً في رُوما أمرٌ شاع وذاع.

والجواب عن ذلك التساؤل معلوم معروف مركوز في الفِطَرِ السليمة، والنفوس الكريمة، وهو أن الهداية للعقل البشري هي فقط في دين الإسلام،

وأن الضلال فيما سواه، وأن تحرير الإنسان، وتنوير عقله لن يوجدا إلا في هذا الدين العظيم والذي لا يقبل من أحدٍ دين سواهُ. قال الله عز وجل:

'Î qèdr ç#B Ø6ès? `=ù $YÝŠ Ä»=ÓIYM$Žöî ÆEq ` Br ¼

فالإسلام لا غيره هو دين التحرير (١)» `ƒÈÅ» , ø#S `B í•ÅÆFY$

والتنوير، وإن إيمان المسلم بأن له رباً كريماً يغفر الذنب ويعفو عن السيئة، وأنه لا واسطة بينه وبين ربه، فلا رسول ولا نبيَّ، ولا ملَكَ، ولا وليَّ، ولا كهنوتَ، ولا صكوكَ غفرانٍ، ولا آباء روحيين، ولا شيءَ من ذلك كله وسواه يكون واسطة بين العبد وربه، واتخاذ الوسائط يدلُّ على مدى التخلف العقلي والنفسي، والفساد العقدي عند أصحابها حين زعموها وسائط.

إن هذا الإيمان عند المسلم بانتفاء الواسطة بينه وبين ربه يحرر إرادته، وينور عقله ووجدانه، ويجعله يحس بالسعادة الحقة فهو ليس عبداً إلا لله ربه وخالقه، وهذه العبودية هي في حقيقتها قمة التحرير لإرادة المسلم ونفسه وشخصيته وتنوير عقله.

(٩) والاستغفار لله تعالى باب واسع من أبواب الحرية يتألق المسلم في ساحتها على طريق العبودية لله تعالى، طلباً لمغفرته، ومناجاة لجلاله، واطِّراحاً بين يديه، وإقبالاً عليه، وفراراً إليه مما سواه، ومن شأن هذه المعاني أن تبني في

(١) سورة آل عمران : (٨٥).

الحد الأدنى شخصية لها مقوماتُ القوة والثبات عند الشدائد والأهوال. وعلى المسلم أن يقدر نعمة الاستغفار، ويحرص عليها فلا يفرط فيها، أو يتكاسل في طلب المغفرة من الله تعالى لأ ـا أصلُ الثواب على الأعمال ولأ ـا ((جعلت ثواباً على قيام ليلة القدر التي قيامها خير من العمل في ألف شهر بحمل السلاح في سبيل الله، فالمغفرة هي الأصل، وهي المنجيةُ من الهلاك، ولو كان من الرحمة ما عسى أن يكون مع عدم المغفرة فالهلاك ممكن، ولأجل ما فيها من هذا المعنى خصَّ الله عز وجل نبيه r بها فقال: ¼ •ÿýøxÿ

¼çFJèÏ ŒÏƒâr •ž'? $Br š• ÎŸ€ `Ï P‰)? $B ª! $ 7 9

ولم يذكر له غير ذلك (١)» $VÜ<ÿÉFóÞ $ÛŽÂ 7ƒï‰ör 7øã

من الثواب، فدل بالعقل والنقل أن أفضل ما أعطي المرءُ المغفرة)) (٢).

(١٠) والمسلم حين يقول: (أستغفر الله)، فهو يطلب المغفرة من الله تعالى، فالتاءُ والسينُ للطلب كما هو معلوم، وذلك دليلٌ على أنه شعر بظلمة المعصية وَوحْشَتِها فَفَرَّ منها إلى نور الأُنس بالله تعالى، والأمل في سعة رحمته وفضله وطلب مغفرته، وذلك أن قلق المذنبين جعل لهم أنساً

---

(١) سورة الفتح : (٢).
(٢) بهجة النفوس لابن أبي جمرة الأندلسي: (٦٧/١).

بالليل في ساحة المناجاة والاستغفار للرب الغفار، والاطّراح بين يديه ومناجاته بقلبٍ وجلٍ، وعبارةٍ منكسرة، وبدن مقشعر من خشيته، ففي ذكره تعالى اطمئنانُ النفوس، وفي الاعتذار إليه سبحانه الراحة والطمأنينة فكل ما سوى الله تعالى إذا خفته فررت منهُ: أما ربك الغفور الرحيم فإنك إذا خفت منه فررت إليه بالاستغفار والاعتذار والندم، ونعم الفرار إلى الله تعالى فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

(١١) ولشأن الاستغفار ومكانته عند الله تعالى فإنه لا يكون مبذولاً للمشركين ولا للمنافقين بعد موتهم على ذلك، ولكنه مبذول من المؤمن لأخيه المؤمن، في حياته وبعد مماته قال تعالى:

#(réÿóGó„b&#(pæB#ä šú ï‰Ÿ ÉÉ=Ï šc %. $B ¼

$B Ï‰è/ .`Ï B 2† 1öè'íré{pçY2 q9r ûüÅ2 Îô Ïd

.(١)»ÉŠÅgø$Ï»sô-&ÏÅ&Ïç;šú ü7?

(١٢) وهو من مهام الملائكة الكرام الحاملين لعرش الرحمن قال تعالى:

Ï‰ôt2 bqßsÎ=ç¼q9öm ôBr ¸ öè%$bqèÜtƒ ûïÏ‰Ÿ¼

(١) سورة براءة : (١١٣).

.(١)» ¥qZB#ä ûï‰Ø brãÿóGó „r ¾ïÎ bqZBsãr ïíí

(١٣) ولشرف الاستغفار فقد أُمِرَ به أشرف الخلق جميعاً نبينا محمد r قال تعالى: ¼ù bŸ2 ¼çRÎ) çÿÿóGÏ¹ 7îh ‰ôt2 ôîhù

$RQ?» .(٢). والمتأمل في لفظ الاستغفار في القرآن الكريم يلحظ أنه ورد بصيغة الجمع في الغالب دليلاً على أن الأمة مطالبة به وهو: أي استغفار الأمة كلها هو الذي يفرج الله به الكربات، وتجرى به الخيرات، وتفتح به بركات الأرض والسماوات. أما الاستغفار الفردي فغالب فائدته تعود على صاحبه.

(١٤) والاستغفار إقرار من العبد بأن الله تعالى وحده هو الذي يمنح المغفرة.

(١٥) ولشرف الاستغفار فإنه لا يستغني عنه أحد من الثقلين، فكلهم محتاجون إليه.

(١٦) أنه من وظائف وخصائص الأمة المحمدية فهي لا تفتر عن ترديد:

---

(١) سورة غافر : (٧).
(٢) سورة النصر : (٣).

.(١)» ÇÒÅJ¾Ïš• ¾Ïr $Y/‘ 7R#•ÿâ ¼

(١٧) ولأهميته فلم يرد وصفاً للمؤمنين إلا مقترنا بصفات أخرى كريمة.

قال تعالى: ¼ šú üÏ€Ò)¾Ïr šú üÏ‰»¾Ïr ûïÍÉÁ9$$¼ وقال (٢)» Í$sÒ¾Ïr šú ïÌÏóÇó¾Ïr šú üÏ€Ò¾Ïr سبحانه: ¼ þ_r Ò¾Ïr ÎŠ `Bó•ÿóB 4‹Ï€ÒÍ$™r * ÇÌÍÈ ûüÏ€Ò¾Ïr Ò¾Ïr Ò¾Ïr ÒÚ ÒÏ$$¾Ïr Ò¾Ïr á¾Ïr ûüÏ€Ò» 6 ¾Ïr Ï#Ò¾Ïr Ï#Ò¾Ïr ÇÌÍÈ šú üÏ€Ò¾Ïr Ò¾Ïr Ä $Y9$$Çã ûüÏ€Ò¾Ïr Ò¾Ïr Ò¾Ïr ª!$Ò¾Ïr šU ÒÏ$$¾Ïr ÒÏ$$¾Ïr ª!$Ò¾Ïr

وقال تعالى: ¼ (٣)» šc Ò¾Ïr ¼ (٤)» Ò¾Ïr Ò¾Ïr .

(١٨) وفي ترك الاستغفار الهلاك والدمار والعذاب. قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة : (٢٨٥).
(٢) سورة آل عمران : (١٧).
(٣) سورة آل عمران : (١٣٢ إلى ١٣٥).
(٤) سورة الذاريات : (١٨).

وقال (١)» brâÿóCó„ ¤ér ¤ß/Éèâ ª! $šc ‰. $Br ¼

سبحانه:

ûxâù ¼ :وقال عز وجل (٢)» ¤¤íÍqÇâÎ ª! $â¤è‹{'ù ¼

&}$R¤ ‹Î ¾ï¤ÍR ‹Î $R¤ الآية. (٣)»

(١) سورة الأنفال : (٣٣).
(٢) سورة آل عمران : (١١).
(٣) سورة العنكبوت : (٤).

أصل كلمة الاستغفار

جاءت كلمة ((الاستغفار)) أي طلب المغفرة، دالة على معنى طلب قائلها من ربه الستر، فالمغفرة مشتقة من ((الغفر)) بمعنى التغطية، والستر، وهو المعنى الذي تدور عليه الكلمة. يقال: غفر الله ذنوبه، أي سترها. وكل شيء سترته فقد غفرته ومنه كلمة ((الْمِغْفَرْ)) وهو زُرَد ينسج من الدروع على قدر الرأس تحت القلنسوة، والعرب تقول: أصبغ ثوبك بالسواد فهو أغفر لوسخه، أي أجمل له وأغطى له. ومنه قولهم: غفرت المتاع، جعلته في الوعاء وسترته(١). فالسين والتاء للطلب.

ولا شك أن المذنب حين يستغفر ربه من ذلك الذنب فهو يرجوه ويطلب منه سبحانه ألاَّ يؤاخذه، وأن يستره فلا يفضحه، وأن يرحمه فلا يعذبه، ولعل ذلك يدل عليه قول الله تعالى: ¼ ÈyøÏ$ $Yã ßâ$ ¼ çnqÝ¡ø)ãÏ9 $Z)ƒmÏ$ $Y9 «(٢) فالعفو: عدم المؤاخذة، والمغفرة: الستر، والرحمة: هي المعنى الواسع الشامل لخيري الدنيا والآخرة، ورحمة الله التي تطلب في

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني. تحقيق صفوان عدنان داودي. ص (٦٠٩) ولسان العرب لابن منظور (٤/٢٥-٢٨).

(٢) سورة البقرة : (٢٨٦).

الآخرة هي : الفوز بالجنة، والنجاة من النار. وما دام الاستغفار بهذه المكانة عند الله تعالى، فلا بد فيه من النية وهي استشعار ما يدل عليه من طلب المغفرة من الرب الرحيم، العفو، الغفور، والناس في هذا الأمر متفاوتون، فمنهم من تكون نيته قوية، ومنهم المتوسط فيها، ومنهم من نيته ضعيفة، والعمل يقوى ويضعف، ويكبر ويصغر بالنية، فرب عمل صغير قليل كبر بالنية وصار كبيراً عند الله تعالى، ورب عمل كبير صغر بالنية.

ومعنى ذلك أن المسلم حين يستغفر الله قائلاً: (أستغفر الله) يحسن به أن تكون نيته قوية في ذلك، مع الهمة والعزم، واستشعار معنى: (أستغفر الله) فالخلق جميعاً أمام الله تعالى في مقام المقصرين فكيف إذا صحب هذا التقصير ارتكاب ذنب، أو معصية، واستشعر المذنب قدرة الله تعالى عليه، وتوالي نعمه الظاهرة والباطنة عليه، وإمهاله إياه فلم يعاجله بالعقوبة، وهو الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو بكل شيء عليم، ولا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء وهو على كل شيء قدير.

صيغ الاستغفار

إن المتأمل في كلمة (الاستغفار) وما تصرف منها من خلال التعبير بالفعل الماضي (اسْتَغْفَر) وبالفعل الحاضر – الأمر – (اسْتَغْفِرْ)، وبالفعل المستقبل (يَستَغْفِرُ) يتضح لديه أن ألفاظ الاستغفار جاءت في القرآن الكريم أفعالاً اللهم إلا في آيتين فقد وردت في الآية الأولى بصيغة اسم الفاعل وذلك في قوله تعالى: ¼ íŠsöÑŠ¢Ÿ šú ïÌÏÿóÇó ÏŠ¢Ÿ »(١). وفي الثانية بصيغة المصدر وذلك في قوله تعالى: ¼ ç%ãöB `ã ŠÎ ïŠÎŠ¢ OŠÏ•ó Šÿóô¢Ÿšc %. $Br »(٢)، وقد ورد لفظ (الاستغفار) فيما يقرب من اثنين وأربعين موضعاً في القرآن الكريم، كما يتضح لدى المتأمل أن كلمة الاستغفار في القرآن الكريم في تلك المواضع لم تتغير حروفها: (السين، والتاء، والغين، والفاء، والراء) حين التعبير بها عن الفعل الماضي (اسْتَغْفَر) وعن المضارع (يَستَغْفِرُ) وعن الأمر (اسْتَغْفِرْ) وحين إسنادها إلى الضمائر

---

(١) سورة آل عمران : (١٧).
(٢) سورة التوبة : (١١٤).

التي تعبر عنها، دليلاً على أن (الاستغفار) طلب للمغفرة من الله تعالى. ودليلاً على أن الاستغفار قول وحركة وعمل وهو يمثل حركة النفس، وانفعالها بطلب المغفرة، والطمع في الرحمة من الله تعالى.

كما يلحظ المتأمل في موارد كلمة (الاستغفار) في القرآن الكريم أن ريحة الأمر فيها هي الغالبة سواء كان ذلك بالتصريح كما في الصيغ التالية (اسْتَغْفِرْ – اسْتَغْفِري – اسْتَغْفِروا) الدالة بلفظها ومعناها على الأمر، أو في الصيغ التي ظاهرها الخبر، ومعناها الأمر كما في قوله تعالى: ¼ brëÿøGó„ Ùè íštõRF$r «(١)، وقوله سبحانه: brëÿøGó„ tÙèr tûÏJÉèßª!$šc %. $Br ¼ «(٢) وما ذكر على سبيل التمثيل لا الحصر، والإسناد إلى ضمير الجماعة هو الغالب في تلك الصيغ دليلاً على أن (الاستغفار) الذي يعول عليه، والذي يؤثر في حياة الأمة هو الاستغفار الذي يصدر عن لسان الأمة كلها إعلاناً بالتصالح مع الله تعالى، والعودة إليه، والرغبة في مغفرته، ورحمته. أما الاستغفار الفردي فأثره يعود على صاحبه غالباً. وهذا ملاحظٌ أيضاً في الأمر الإلهي الكريم

(١) سورة الذاريات : (١٨).
(٢) سورة الأنفال : (٣٣).

للأمة بالتوبة، فلم يرد في القرآن أمر الله تعالى للفرد بالتوبة، دليلاً كذلك على أن التوبة التي يرحم الله بها هي توبة الأمة جميعها، وتوبة الفرد تدخل في توبة الأمة، ولكن توبة الفرد، أو الأفراد – مع فضلها وشرفها – تعود فائدتها على أصحابها غالباً، وجاءت صيغتا: (اغْفِرْ) و (غُفْرانَكَ) دالَّتين على طلب

المغفرة من الله تعالى في القرآن الكريم . قال سبحانه: ’ñ) Éz ‘ A$% ¼

âqà ó ø$ qè ¼çR Î ¥ Ä • ÿóù ’Í ë ÿ ô$ù ÓÅ ÿ R ÆM Ó=ß

$ Ð Š ï m S 9 $ « (١) وقد جاءت هذه الصيغة في سبعة عشر موضعاً في

القرآن الكريم، بينما وردت صيغة (غفرانك) في موضع واحد فقط لأنه شعار واحد لأمة واحدة هي أمة محمد r وهي الأمة التي آمنت بالله، و ملائكته، وكتبه، ورسله، ولم تفرق بين أحد من رسله، وهي أمة السمع والطاعة لله تعالى لا أمة السمع والعصيان. ولعل ذلك يدل عليه مجيء لفظ (غفرانك) في الآيات التي في أواخر سورة البقرة، وهي السورة التي حفلت بالحديث عن بني إسرائيل، وعن غرائبهم، فكان ختامها بتلك الآيات إعلاناً بصفات

المؤمنين في أمة محمد r قال تعالى : Aì Ré$ J Î Æ qÍ S 9 $ ` B# ä ¼

(١) سورة القصص : (١٦).

¾ïÎF3Í»=Br «‹ $Ï `B#ä @ä bqæÃBs=3ø¤r ¾ïÎ§ `Ï ïnø)Î

¾ïÎ#ß•‹ `Ï ‰m& šú ï/ äÌhyçÏ ẅ ¾ïÎ#ß•âr ¾ïÎÇär

ç•ÅJø¤š• ø)Îr $Y/‘ 7R#•ÿâ $YèÛ&r $ZèÜ™ ‹qø¤%r

«(١). هذا ويمكن القول بأن صيغ الاستغفار في القرآن الكريم وردت كما يلي:

١- (أَسْتَغفِرُ الله) في صيغ متنوعة، وإسناد متنوع كذلك، وذلك في قول الله تعالى: ¼ Öqæâî ©$žc Î ©$‹(ræÿóGÜ$¤ وقوله سبحانه: ¼ Ðß9 •ÿóGÜ$¤ ©$‹(ræÿóGÜ$¤u (٢)» Ò<ïm§ وقوله عز وجل: ¼ (٣)» $VŠïm§ $Y#ß? ©$‹(r‰ `q9 æÃqß™9$$، وقوله عز وجل: ¼

---

(١) سورة البقرة: (٢٨٥).

(٢) سورة البقرة : (١٩٩)، وسورة المزمل (٢٠).

(٣) سورة النساء : (٦٤).

وقوله ،(١)» šc qΩmëêÑà6 =è9 ©$šc rëÿøFó ŵq9

عز من قائل: ¼ #Yqàî b%. ©$žc Ĵ ©$ìÿóGÓ$r

وقوله جل وعز: ¼ Ñîâƒ r& #ãqß@ Jèƒ `Br ،(٢)» $ŲŠïm§

،(٣)» $ŲŠïm§ #Yqàî ©$Ï‰Éƒ ©$ìÿóGó„ Cê¼çï ø

وقوله عز من قائل: ¼ ãç; ëÿóGÓ$r ÑG¥B Mø© `Jÿ bÉù

وقوله جل في علاه: ¼ ©$£ç; ëÿóGÓ$r £Gèƒ$6ù ،(٤)» ©$

.(٥)» ìïm§ Ôqàî ©$bĴ

---

(١) سورة النمل : (٤٦).
(٢) سورة البقرة : (١٠٦).
(٣) سورة البقرة : (١١٠).
(٤) سورة النور : (٦٢).
(٥) سورة الممتحنة : (١٢).

٢- كما وردتْ في القرآن الكريم صيغ الاستغفار للرب سبحانه وتعالى وذلك ما دلت عليه الآيات التالية: ﴿ ﴾ الآية، (١) ﴿ ﴾ الآية، (٢)

﴿ ﴾ الآية، (٣) ﴿ ﴾ الآية، (٤) ﴿ ﴾ الآية، (٥)

---

(١) سورة يوسف : (٩٨).
(٢) سورة مريم : (٤٧).
(٣) سورة الكهف : (٥٥).
(٤) سورة هود : (٣).
(٥) سورة هود : (٥٢).

الآية، ¼ (١) » ïø) ÎÈ ÇÊÌÈ ¼ ã&Ïó¡ÎS ¼ çÎ7•Bé& ÏM»t6ÍhŠsÛ ¼ çÎ7•Bé&

الآية. (٢) » #Y‰ÏÜ≈ ¢Á9$# ¼ çÎ7•Bé& ÏM»t6ÍhŠsÛ ¼ ã&Ïó¡ÎS

وغير خاف على المتأمل في هذه الآيات أن مجيء لفظ (الرب) دون سواه له دلالاته، وإيماآته القريبة والبعيدة المتصلة بحال المخاطبين وترغيبهم فيما عند ربهم خالقهم، ورازقهم، والرحيم بهم، على أن آية سورة مريم التي جاء فيها الحديث على لسان إبراهيم عليه السلام وهو يودع أباه بالسلام، ويعده باستغفار ربه له بعد يئسه منه هي الآية الوحيدة التي أسند فيها لفظ (الرب) إلى ضمير المتكلم: الياء، ولفظ (ربي) في كلام إبراهيم عليه السلام مشعر بمدى قربه، وصلته بربه، وحسن ظنه به، فشأن الرب ألا يضيع مربوبيه، فهو يحيطهم بعنايته، ويرزقهم، ويعافيهم، ويحفظهم حتى ولو كفروا به، فهو سبحانه رب الخلق أجمعين، ورب السماوات والأرضين. والحث على استغفار الرب سبحانه واضح في آية سورة الكهف، ومع أن أسلوبها خبري لفظاً إلا أن معناها الأمر. وفي الآيات الثلاث من سورة هود جاءت صيغة ¼ ã&Ïó¡ÎS ÏM»t6ÍhŠsÛ « مشعرة بمدى رغبة الأنبياء: محمد، هود، شعيب، عليهم الصلاة والسلام في تنبيه أقوامهم إلى الصلة التي تربطهم

---

(١) سورة هود : (٩٠).
(٢) سورة نوح : (١٠).

بربهم وخالقهم جل وعز، فأولى بهم أن يستغفروه بترك الشرك به، ويقبلوا عليه إيماناً به وطاعة لأمره، فهو سبحانه بيده أمرهم في الدنيا والآخرة. كما جاءت مقالة نوح عليه السلام في آية سورة نوح في ذات الاتجاه.

٣- (غفرانك) وهي صيغة دالة على طلب المغفرة من الله تعالى، وجاءت على المصدرية.

قال الزمخشري: منصوب بإضمار فعله يقال: (غفرانك لا كفرانك) أي نستغفرك ولا نكفرك(١).

قال صاحب الدر المصون السمين الحلبي: فقَدَّرهُ جملة خبرية، وهذا ليس مذهب سيبويه، إنما مذهبه: تقدير ذلك بجملة طلبية كأنه قيل: (اِغْفِرْ غفرانك)(٢). وهي في القرآن الكريم في قول الله تعالى: » ž•Ä J‰Ïs• øŒÎ) $Y/' 7 R#•ÿâ ¼ (٣).

٤- (اِغْفِرْ) وهي صيغة دالة على الطلب: أي طلب المغفرة من الله تعالى. أي : (اغفر الذنب)، ولام الجر متعلقها، وهو يجر ما يدخل عليه من ضمير، أو اسم ظاهر في أحوالهما المتنوعة فيقال مثلاً: (اغفر لي، اغفر لنا،

---

(١) تفسير الزمخشري (٤٠٧/١).
(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٦٩٥/١).
(٣) سورة البقرة : (٢٨٥).

اغفر لهم، اغفر لوالدي، اغفر للمسلمين...إلخ) وقد وردت هذه الصيغة في القرآن الكريم سبع عشرة مرة كلها متعلقة بلام الجر إلا موضعاً واحداً وهو قوله تعالى: ¼ ûüÏ‰ÏqøóßJø9$#ur ÇÚöF{$# ÏM»t6Íh‹©Ü9$# ÏNºuqø9$#ur ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ÏM»tƒÏ‰ö7ãŠÏ9 ÒOŠÅ3ym ÇÊÈ «(١).

ومما تجدر الإشارة إليه والتنبيه عليه (في عجالة سريعة) أنه قد جاءت صيغ كثيرة في الاستغفار في السنة النبوية، نورد منها ما يلي:

١- صيغة (سيد الاستغفار). روى البخاري عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي r قال: (**سيد الاستغفار: أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبُوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبُوءُ بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**) قال: **ومَنْ قالها من النهار مُوقِناً بها، فمات من يومه، قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**) (٢).

٢- صيغة (أَسْتَغْفِرُ الله) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله r يقول: (**والله إني لأستغفر الله وأتوب**

---

(١) سورة المؤمنون : (١١٨).

(٢) صحيح البخاري حديث رقم (٦٣٠٦) وص (١٢١٣).

إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) [١]، وفي رواية لمسلم في صحيحه: **(إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)**[٢] وفي رواية أبي داود في سننه: **(إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفر لله في كل يوم مائة مرة)**[٣].

٣- صيغة (أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه)، قال النبي r : **(من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له، وإن كان فر من الزَّحف)** رواه أبو داود[٤] والترمذي[٥] وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ورواه الحاكم[٦] من حديث ابن مسعود وقال: صحيح على شرطهما إلا أنه قال: يقولها ثلاثاً. وأورده الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح[٧].

وتشعر كلمة (الاستغفار) بأن هناك مُستغفِراً، ومستغفَراً، ومُسْتَغْفَراً له

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٦٣٠٧) وص (١٢١٣).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٠٢) وص (١٠٨٣).
(٣) سنن أبي داود برقم (١٥١٥) وص (٢٣٦).
(٤) سنن أبي داود برقم (١٥١٧) وص (٢٣٧).
(٥) جامع الترمذي برقم (٣٥٧٧) وص (٧٨٥).
(٦) المستدرك للحاكم (٥١١/١).
(٧) مشكاة المصابيح (٧٢٧/٢) برقم (٢٣٥٣).

ومُسْتَغْفَراً منه، فالمستغفِر هو طالب الاستغفار، والمستغفَرُ هو الله تعالى لا غير، فلا يجوز أن يُسْتَغْفَرَ إلا هو سبحانه فهو الغفور الرحيم، وهو الذي يغفر الذنوب جميعاً إذا تيب منها، والمستغفَرُ له، قد يكون إنساناً، وقد يكون ذنباً. قال الله تعالى: ¼ ÐG9 •ÿýøGÕ™$ الآية، وقال سبحانه: ¼ ãÿýøGÕ™& š’ ô™ A$% (١)» ãAqI™S9$ الآية، ونظائر ذلك في القرآن الكريم. وقال عز وجل: ¼ Ñã9 (٢)» þîí الآية، وقال عز من قائل: ¼ %qàf ¯R$/'»ƒ ÏM‹Ï¹ $Z9 ÿýøGÕ™$ $Z/qçG (٣)» الآية، وقال عز من قائل: ¼ ÏM%Î ÿýøGÕ™$ (٤)» š• ÎÅ، والمستغْفَرُ منه هو الذنب.

ومن خلال الآيات الواردة في الاستغفار فإنه يمكن أن يتوجه به إلى

---

(١) سورة النساء : (٦٤).
(٢) سورة يوسف: (٩٨).
(٣) سورة يوسف : (٩٧).
(٤) سورة محمد : (١٩).

الله تعالى باسمه الظاهر فيقال: (أَسْتَغْفِرُ الله) أو بضمير يعود عليه سبحانه (أَسْتَغْفِرُه) قال تعالى: ¼ #Yqàî b‰. ©$žc Î ©$ ìÏÿóGÓ$ الآية. وقال سبحانه: ¼ † ‹Î šc qçqÇ Ÿxù& (١) » $VŠïm§ الآية. وقال جل وعز: ¼ Ò>ïm§ Ôqàî ª! $ ¼çRræÏÿóGó„r «! $ الآية. (٢) » $RS? b‰Ÿ2 ¼çRÎ) çÏÿóGÓ$ 7În Ï‰ôt2 ôÎm ù ¼ الآية. (٣) » ونظائر ذلك في القرآن الكريم.

وإذا صح ذلك في ضمير الغيبة العائد على الله تعالى، فإنه يصح أيضاً في ضمير الخطاب كذلك فيقال (أَسْتَغْفِرُكَ، وأتوبُ إليك) وذلك بعد تقدم ذكر اسم الله تعالى تسبيحاً، أو حمداً له سبحانه، أو بما يدل على ذلك من أنواع الذكر المختلفة لله تعالى. ولعل هذا يدل عليه فعل الرسول r بعد

---

(١) سورة النساء : (١٠٦).
(٢) سورة المائدة : (٧٤).
(٣) سورة النصر : (٣).

نزول سورة (النصر) عليه، فقد روى البخاري[١] ومسلم[٢] عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله r يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي) يتأول القرآن. أي يتأول قول الله تعالى: ¼ #ŒÎ) â$_ R Á$ĕõ$ «! $# ßx÷Gxÿø9$#ur ÇÊÈ |M÷ƒr&u‘

$Y9$# šcqè=äzô‰tƒ ’Îû Ç`ƒÏŠ «! $# %[`#uqøùr& ÇËÈ ôxÎm7|¡ù

ôxÎm7|¡sù ÏŠôJpt¿2 y7În/u‘ çnöÏÿøótGó™$#ur 4 ¼çm¯RÎ) tb%x. $R/#§qs? ÇÌÈ »[٣] وروى مسلم أيضاً في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله r يكثر أن يقول قبل أن يموت: (سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك) قالت: قلت: يا رسول الله، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: (جعلت لي علامة في أمتي، إذا رأيتها قلتها، إذا جاء نصر الله والفتح)[٤] إلى آخر السورة.

---

(١) صحيح البخاري ((**كتاب التفسير**)) رقم الحديث : (٤٩٦٨) ص (٩٨٧).
(٢) صحيح مسلم ((**كتاب الصلاة**)) رقم الحديث (٤٨٤) ص (٢٠٠).
(٣) سورة النصر : (١ إلى ٣).
(٤) صحيح مسلم ((**كتاب الصلاة**)) رقم الحديث (٤٨٤) ص (٢٠٠).

أوقات الاستغفار

يمكن القول بأن الاستغفار يمتد وقته مع المسلم المكلف به على جهة الندب والاستحباب ليشمل الأوقات كلها في اليوم والليلة، فلا وقت محددٌ للاستغفار بحيث إذا وقع خارج ذلك الوقت وصف بأنه غير صحيح، ولم يرد في القرآن الكريم النص على الإلزام بوقت معين للاستغفار، وإنما وردت الإشارة إلى أفضلية بعض الأوقات للاستغفار على جهة الترغيب لإيقاعه فيها، وسنعرض لذلك فيما يلي:

١) وقت السَّحر. وهو آخر الليل قبيل الصبح، وقيل: هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر(١)، وقد جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلى أهمية الاستغفار، وشأنه في هذا الوقت في موضعين وذلك في سورتي (آل عمران)، و(الذاريات). ففي سورة (آل عمران) وردت الإشارة إلى ذلك في ثنايا الإشارة إلى بعض صفات عباد الله المتقين قال الله تعالى: ¼ * @€ Ó Ô Õ Ö × Ø Ù Ú Û Ü Ý Þ ß à á â ã ä å æ ç è é ê ë ì í î ï ð ñ ò ó ô õ ö ÷ ø ù ú û ü ý þ ÿ

(١) تفسير القرطبي (٤/٣٨-٣٩).

قال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: (١) «

(دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام، لما قال لبنيه: « أنه أخرهم إلى وقت (٢) «

(١) سورة آل عمران (١٥ إلى ١٧).
(٢) سورة يوسف (٩٨).

السَّحر)[١].

وفي سورة (الذاريات) كذلك جاءت الإشارة إلى أهمية الاستغفار وقت السَّحر في ثنايا الحديث عن بعض صفات عباد الله المتقين. قال الله تعالى:

$B ûïÉÏ{ #ä ÇÏÈ Aqãã r M»Z_ 'Î ûüÉG3$ b) ¼

(qç. ÇÏÈ ûüÏÅ 7Ï E 6 (qç.)) ‘ G9?#ä

ö í$tãF$r ÇÈ bqãfö $B ` W<Î%

„ br ÿ Gó» [٢] وفي تفسير قوله تعالى:

„ ö í$tãF$r ¼ ÇÏÈ br ÿ Gó « قال أهل العلم: (أي يطلبون في أوقات السَّحر من الله سبحانه أن يغفر ذنوبهم[٣]. وقال الحسن: مدُّوا الصلاة إلى الأسحار. ثم أخذوا بالأسحار الاستغفار) [٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٥٣/٢) وانظر: تفسير القرطبي (٣٨/٤-٣٩).
(٢) سورة الذاريات (١٥ إلى ١٨).
(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني (٨٤/٥).
(٤) نفس المصدر.

٢) وقت النَّفْرَةِ من المزدلفة إلى مِنى بعد شروق الشمس من يوم العاشر من ذي الحجة يوم عيد النحر. قال الله تعالى: ﴿ ... (١).

ومما هو معلوم أن المبيت بمزدلفة يعقب الوقوف بعرفة، ولا شك أن التوفيق إلى فعلهما من نعم الله تعالى، فهما عبادتان لهما شأ ما عنده سبحانه، ولذلك ورد الأمر الإلهي الكريم بالاستغفار بعدهما، وهو مَعْلَمٌ كريم يَسْتَرْشِدُ المسلم به في حياته، فيستغفر ربه سبحانه بعد

(١) سورة البقرة : (١٩٨-١٩٩).

الانتهاء من العبادة، والتوفيق إلى فعلها، (وقد يكون الاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها... وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير ويشكره على التوفيق لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة ومنَّ بها على ربه)(١). ويقول ابن كثير: (كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله r كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً) (٢).

٣) عقب فعل أو قول ما لا يرضي الله تعالى، ولا رسوله r. قال تعالى: ¼ tÏ%©!$#ur #sŒÎ) šú (#qè=yèsù ºpt±Ås»sù ÷rr& (#þqßJn=sß öNæh|¡àÿRr& (#rãx.sŒ

©!$# (#rãxÿøótGó™$$sù öNÎgÎ/qçRä‹Ï9 `tBur ãÏÿøótƒ z>qçR—%!$# žwÎ) šU

ª!$# öNs9ur (#r•ŽÅÇム4’n?tã $tB (#qè=yèsù öNèdur šc »(٣). وهذا

من بالغ رحمة الله تعالى بخلقه، حيث جعل للمذنبين أملاً في رحمته، ومغفرته، فجعل لهم الاستغفار طريقاً إلى ذلك. وجاء في السنة النبوية الحث

---

(١) تفسير السعدي (١٤٥/١).
(٢) تفسير ابن كثير (٥٦٠/١).
(٣) سورة آل عمران : (١٣٥).

على كفارة المجلس لتكفير ما قد يقال في المجالس من اللغط، ومما لا خير فيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : (من جلس في مجلسٍ فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك)(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وحين قتل موسى عليه السلام ذلك الرجل القبطي فزع إلى الله مطرحاً بين يديه، ومعترفاً بفعله، وطالباً منه سبحانه أن يغفر له. قال تعالى: ¼

È@Hå ôÏB #‹»d A$% ïnøãA 4Ó)ù 4›qãA ¼ç“.qù

’Îû Ée‘ A$% ÇÎÈ ⊗üÎ7B @@Ò9B ÆÆ6ã ¼çRÎ) Ç»Ü⊗±9$$

âqà⊗ó⊗$$ qè¼çRÎ) ÿ⊗A •ÿóù ’Í ö⊗ÿô$$ù ÓÅ⊗R ÀMÎ=ß

ÚÌ•ã& ß#ß™qã¼ ومما يتصل بذلك قوله تعالى: (٢)» ÐŠïm§9$$

(١) جامع الترمذي : (٣٤٣٣).
(٢) سورة القصص (١٥، ١٦).

`Ë ÏMZà2 ÆXRÎ ÆXÎR‹Ï “ ìÏýøGÜ$r #‹»d îã

û»[١] وبصفة عامة فإن الاستغفار مطلوب خاصة بعد فعل السيئة، أو قول السوء. والاستغفار من الحسنات، وإنما تذهب السيئات وتزول بالحسنات. قال تعالى: ¼ÎbÎ) ¨ÏM»Z¡¡tø$ÏÙ#ÏdÕãÃÏN$«ßñ¡ 9$ûè#ÏdÕãÃÏN$«ßñ¡

»[٢] وذلك باب واسع من أبواب الرحمة الإلهية بالعباد.

٤) عقب صلاة الفريضة، فقد كان النبي r يستغفر الله عقب تسليمه من الصلاة المفروضة يقول: (أستغفر الله) ثلاثاً[٣]. الحديث.

٥) حين تتكامل نعم الله تعالى على عبد من عباده خاصة إذا كان قد بلغ من العمر مرحلة ينتظر بعدها الموت، حينذاك ينبغي على هذا العبد المداومة على الاستغفار، والإكثار منه حتى يتهيأ لرحلة ما بعد الموت لأن القمر إذا تكامل تناقص بعد ذلك، وليس بعد التمام إلا النقص في هذه الحياة وذلك أمر معلوم مشاهد في الأنفس، والكون، وحياة المخلوقات. وقد

---

(١) سورة يوسف : (٢٩).
(٢) سورة هود : (١١٤).
(٣) صحيح مسلم، رقم الحديث (٥٩١) ص (٢٣٥).

دل على هذه المعاني ما جاء في سورة النصر فقد أخبر الله تعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه إذا فتحت عليه مكة المكرمة، وجاءه نصر الله على مشركي العرب، ورأى دخولهم في دين الله أفواجاً فعليه أن يداوم مكثراً من التسبيح والاستغفار لربه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ¼ #Œ Ä$_ R Á ö è

Ç Ì ¾ ¨ ¦ ¥ ¤ £ ¢ ¡ ~ } | { z y x w v u t s r q p o n m l k j i h g f e d c b a ` _ ^] \ [Z Y X W V U T S R Q P O N M L K J I H G F E D C B A @ ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + *) (' & % $ # " !

» (١) قال العلامة القاسمي رحمه الله في تفسيره: (أي فنزه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله، وعنْ أنْ يُخْلف وعْدَه في تأييده. وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده، والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب، والحكيم الذي إذا أمْهَلَ الكافرين فلن يُضَيِّع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين، والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين، فلا يذهب عليه رياء المرائين ¼ « أي: اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن لتأخر زمن النصر

(١) سورة النصر: (١ إلى ٣).

والفتح)[١]. ويقول رحمه الله: (وكأن الله يقول: إذا حصل الفتح، وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره، والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس)[٢]. والاستعداد للقائه عز وجل، قال العلامة السعدي رحمه الله: (وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار كالصلاة والحج وغير ذلك فأمرُ الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة إلى أن أجله قد انتهى فليستعد ويتهيأ للقاء ربه ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه)[٣].

ولا يعني ما تقدم من الإشارة إلى أوقات الاستغفار أن هذه الأوقات هي الخاصة بالاستغفار وأن غيرها ليس كذلك، بل إن الاستغفار مطلوب في كل الأوقات، ويتحرى به هذه الأوقات وكلَّ الأوقات والأحوال المفضلة، وهي معلومة مفصلة في السنة النبوية. ولشرف الاستغفار فإنه لا يستغني عنه أحد من مكلفي المسلمين، ولذلك جاء الأمر به في القرآن الكريم غير مرتبط

---

(١) محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي (٢٨١/١٧).
(٢) نفس المصدر ص ٢٨٢.
(٣) تفسير السعدي (٤٣٩/٥).

بزمان، أو مكان، أو حال معين وذلك في مثل قول الله تعالى: ¼ وقوله (١)» Ò>ïm§ Ôqèâî ©$žc Ĵ ©$ŕ(rèÿøÓ$r سبحانه: ¼ $VŠïm§ #Yqèâî b%. ©$žc Ĵ ©$ŕ(rèÿøÓ$r (٢)» ويلاحظ أن أمر الله تعالى لعباده بالاستغفار مقرون بعلِّية هذا الأمر وهو أن الله غفور رحيم وذلك ليطمع العباد في مغفرة الله، ورحمته، وتوبته، ويقبلوا على ذلك بأمل واسع، فعِلِّية الأمر بالاستغفار في هذه الآية هي أن الله تعالى غفور رحيم، فمغفرته سابقة، فالحمد لله الذي لم يؤيس عباده من رحمته ومغفرته وفضله.

---

(١) سورة البقرة : (١٩٩).
(٢) سورة النساء : (١٠٦).

أماكن الاستغفار

إنه من خلال التتبع لألفاظ الاستغفار في القرآن الكريم يتضح أنه لم يرد النص تصريحاً أو تلميحاً على ما يمكن أن يوصف بأماكن الاستغفار، ولكن لما كان الاستغفار عبادة لله سبحانه، واعترافاً بربوبيته وإلهيته، فإنه يطلب في الأماكن المباركة، مثل المساجد الثلاثة، والمساجد كلها، ومثل مشاهد الحج، وساحات الجهاد، ومشاهد نزول الغيث. وكل مكان طاهر يصلح الاستغفار فيه. والمهم ألا يغفل المسلم عنه، وله في رسوله r القدوة الحسنة، وقد حفلت السنة النبوية بالحديث عن أماكن الاستغفار.

أعداد الاستغفار

جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلى الاستغفار سبعين مرة وذلك في قول الله تعالى: ¼$#™Ï ÛÏóø ÿöyïö Nlç; ÷r& Ÿw öÏóø ÿöyïö Nlç; bÎ) öÏóø ÿöyïö Nlç; ûüÏèö7y™ Zo§D ù=sù `s9 tÏøóøÿtƒ ª!$# Nlç; »(١) فالله تعالى يقول لنبيه r في شأن هؤلاء المنافقين: إن الله لن يغفر لهم سواء عليهم استغفرت لهم

(١) سورة التوبة : (٨٠).

أم لا، حتى ولو أبلغت في استغفارك بأن استغفرت لهم سبعين مرة فمغفرة الله محجوبة عنهم، فهم لا ينفعهم قليل الاستغفار أو كثيره. قال تعالى: ¼ `9 ßìç; ¤ÿýóGó¢ ßì9 Þ% ÓÖ§9 Nœÿýø¢Ö% ÓÎgßæ á‡q™ šú ïÉÅ»ÿø§Pö)ø§ “ ‰ö wÿ ©$bÎ ßìç; ª!$•ÿýø «(١) وقد اختلفت عبارات المفسرين في الحكمة من وراء النص على عدد (السبعين) فبعضهم حملها على المبالغة، وبعضهم حملها على التكثير. قال أبو السعود في تفسيره: (شاع استعمال: السبعة، والسبعين، والسبعمائة في مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأ ـا العدد بأسره، وقيل: هي أكمل الأعداد لجمعها معانيها، ولأن الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة إذ نصفها ثلاثة، وثلثها اثنان، وسدسها واحد، وجملتها ستة، وهي مع الواحد سبعة، فكانت كاملة إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال، ثم السبعون غاية الكمال إذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات)(٢).

---

(١) سورة المنافقون : (٦).

(٢) تفسير أبي السعود (٨٧/٤)، وتفسير القرطبي (٢١٩/٨) وانظر: تفسير الزمخشري

وقال ابن كثير في تفسيره(١): (يخبر تعالى نبيه r بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله r قال لما نزلت هذه الآية: أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم) فنزلت فقال الله من شدة غضبه عليهم: ¼ ™q‡â æ Ôǧ Ôǧ&Gŏ™ø Nö ÿø Ôǧ9 ‹&

“ ‰ ö Ẅ ©$ b) ǸΪ ª!$ •ÿø ` 9 ǸΪ öÿøGó @ Ǹ9

$#)Pö$#‰ÿ»ÅÉ ü šú «(٢).

ويرى الشيخ السعدي في تفسيره أن العدد السبعين في الآية ذكر على سبيل المبالغة، وإلا فلا مفهوم له(٣).

(٢/٢٠٤، ٢٠٥) وتفسير الفخر الرازي (٨/١٤٩-١٥١).

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٨٨).

(٢) سورة المنافقون: (٦).

(٣) تفسير السعدي (٢/٢٦٣).

وسواء أريد بالعدد في الآية المبالغة، أو التكثير، أو الإشارة إلى شأن هذا العدد فإن كثرة الاستغفار مطلوبة من المسلم، وهناك فرق بين من يستغفر وبين من يكثر من الاستغفار بالليل، والنهار، وبالسر والجهار، وقد مر بنا أن النبي r كان يستغفر في اليوم الواحد مائة مرة، والمسلم النابه يذكر أنه يتقلب بين حمد لله تعالى، واستغفار له سبحانه، فالحمد لله على النعم الظاهرة والباطنة التي يحدثها الله تعالى له، والاستغفار على الذنوب الظاهرة والباطنة التي يحدثها العبد لنفسه.

معنى الاستغفار في القرآن الكريم

يلحظ المتأمل في ورود الاستغفار في القرآن الكريم أنه لم يرد بمعنى طلب المغفرة من الذنوب فقط، بل ورد بمعانٍ أخرى أيضاً، وهي:

أولاً: بمعنى الرجوع عن الشرك وذلك في مثل قول الله تعالى:

$è»GB Naèëh Jãïnø) #bqçqê Nêïa/‘ #rãÿýFÏ%$ÈÈ&r ¼

¼ãÖù @Öù “Ë @äÏNsãr ‘wi B @_& #<) $Z¡m

#bqçqê Oê Na/‘ #rãÿýFÏ%$Qq)»ƒr ¼ وقوله سبحانه: (١)»

4<) qèNà2 šÌƒr #Y‘ÖB Nà6 øæ ä$J¡ 9$ÈÅeãïnø)

¼ وقوله عز من قائل: (٢)» šú üÏBÌjê #qèG? Ÿwr Nàïè

، (٣)» è‹Å è‹ƒ% ’Îr bÎ nø) #bqçqê Oê çrãÿýFÏ%Ù

---

(١) سورة هود: (٣).

(٢) سورة هود : (٥٢).

(٣) سورة هود : (٦١).

وقوله جل من قائل: ﴿ ... ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿ ... ﴾[١]، ومعنى ذلك أن المشركين مطلوب منهم الاستغفار، واستغفارهم هو ترك الشرك والدخول في دين الله، فالآيات الأربع من سورة هود جاء الخطاب فيها على لسان أنبياء الله: محمد، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام إلى أقوامهم الكافرين، والآية الخامسة جاء الخطاب فيها على لسان نوح عليه السلام وهي في سورة (نوح). وذلك يدل على اتساع دائرة الاستغفار وأنه لا يستغني عنه أحد من خلق الله المكلفين ولكن معناه يختلف باختلاف أحوال الخلق: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، ومسلمين مذنبين، أو مقصرين وغيرهم، ومن المعلوم أن من دلائل الإعجاز القرآني، عالمية وشمولية الخطاب فيه، فالآيات الأربع التي في سورة هود ومعها

---

(١) سورة هود : (٩٠).
(٢) سورة نوح : (١٠ إلى ١٢).

آية سورة نوح، هي موجهة لكل من يتأتى منه الخطاب إلى قيام الساعة، فهي صالحة لأن يخاطب بها المشركون، ويخاطب بها المؤمنون، وغيرهم.

ثانياً: بمعنى (الصلاة) وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿ ¼ ÏM»t6Íh‹Ï9 šú ïÏ%©!$# tbqãZÏB÷sßJø9$# ÇÊÈ ﴾[١] قال مجاهد وقتادة: يعني المصلين بالأسحار. جمع سحر وهو الوقت قبيل طلوع الفجر. ومن المفسرين من فسر ذلك بالاستغفار[٢]. ويمكن الجمع بين التفسيرين بأ ـم يصلون مستغفرين بالأسحار، والصلاة مشتملة على الاستغفار.

ثالثاً: بمعنى طلب غفران الذنوب، وهو أكثر ما جاء في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ ¼ ãNn=÷ètƒ ¨bÎ) ©!$# ¨@ä. >ä!$|¡ÏiY9$# ÇÊÈ ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ ¼ çm÷ZÏB tbqè=É)÷ès? ©!$# ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ÏM»tƒFy$# ÏM»oYÉit6ø9$# ÇÊÈ ﴾[٤].

كما يلحظ المتأمل في مجيء الاستغفار مع التوبة أنه جاء متقدماً عليها

---

(١) سورة آل عمران : (١٧).
(٢) تفسير القرطبي (٣٨/٤).
(٣) سورة غافر : (٥٥).
(٤) سورة النصر : (٣).

في القرآن إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ¼ ùx Ÿ ÇqÇ qÇc š، والتوبة [(١)] »

هنا معناها الإقلاع عن الكفر والدخول في دين الله، والاستغفار في هذه الآية على بابه، وهو طلب المغفرة من الذنب وهذه الآية جاءت بعد قول الله تعالى في نفس سورة المائدة: ¼ ©(ÏŸ2 ÿ• ¼ çF ûï% (Ìhpt ÎŽ c ž

9 ¼ çF ûï% (Ìhpt ÎŽ c ž

[(٢)] ».

---

(١) سورة المائدة : (٧٤).

(٢) سورة المائدة : (٧٣).

الاستغفار قول وعمل

جاءت ألفاظ الاستغفار في القرآن الكريم في صيغ الجمع أكثر من صيغ الإفراد، وأغلبها وردت بصيغة الفعل في أحواله الثلاثة، وفي موضعين اثنين جاءت بصيغة اسم الفاعل وبصيغة المصدر وهما قوله تعالى: ¼ $Br ¼ : وقوله سبحانه (١) » ÍF$sÖRF$# šú ïÏ%©!$# (#qãZtB#uä (#qà)¨?$# ©!$# $d‰ãr ç‰ÝÇø)B `ã ÏM»t6Íh‹©Ü9$# (#qè=ÏJtãur ÏM»t6Íh‹©Ü9$# ur ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ur (#qãèÎ7¨?$#ur ©!$# (#qãZtB#uä ¨bÎ) ©!$# 4’n?tã ÒOŠÎ=ym ÇÊÈ %. وذلك يدل على أن الاستغفار قولٌ وعملٌ، وحركة، وليس مجرد (٢) » ô‰s)©9 tbqãZÏB÷sè? ÏM»t6Íh‹©Ü9$# ur ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ur (#qãèÎ7¨?$#ur ©!$# (#qãZtB#uä ¨bÎ) ©!$# 4’n?tã ÒOŠÎ=ym ÇÊÈ قول باللسان، قال الراغب الأصفهاني: وقوله: ¼ çm÷ZÏB ÏM»t6Íh‹©Ü9$# (#qè=ÏJtãur ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ur (#qãèÎ7¨?$#ur ©!$# (#qãZtB#uä ¨bÎ) ©!$# 4’n?tã ÒOŠÎ=ym ÇÊÈ (٣) » #Y‘qàÿxî šc %. ¼çm¯RÎ) tbqä3tƒ، لم يؤمروا بأن يسألوه ذلك باللسان فقط، بل باللسان والفعال، فقد قيل: الاستغفار باللسان من دون

---

(١) سورة آل عمران : (١٧).
(٢) سورة التوبة : (١١٤).
(٣) سورة نوح : (١٠).

ذلك بالفعال فعل الكذابين وهذا معنى (١): ¼$Šãqîþ GÖ¼ ÉÆ-ó

.(٢)» ðâ9

وذلك يدل على أن الاستغفار انفعال النفس بالرجوع إلى الله تعالى، وسؤاله المغفرة، والطمع في رحمته واستيقاظ ضمير المذنب وصحوه على باب الأمل والرجاء في الله تعالى، وذلك الانفعال يأخذ مداه في نفس المذنب ومشاعره، وعواطفه، فينطلق لسانه بالاستغفار تعبيراً عن الندم، والرغبة في الأوبة إلى الله الرحيم الغفور، يعقب ذلك عمل بهجر الذنب، والتحول عن أسبابه.

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص (٦٠٩).
(٢) سورة غافر : (٦٠).

أنواع الاستغفار

والاستغفار مطلوب من الخلق المكلفين، فالأنبياء مطلوب منهم الاستغفار بنص قوله تعالى: ¼ ù ηî ˆ ‰ ‰ ‰ ‰ وهو استغفار يناسب مقام النبوة الشريفة.(١)

والكفار يكون استغفارهم بترك الكفر، ويكون استغفار المنافقين بالإقلاع عن النفاق، مع قيامهم بما طُلب منهم في القرآن من أعمالٍ مشروطة لقبول توبتهم. ويكون استغفار المسلمين من ذنب، أو من تقصير فيما ينبغي القيام به من الأعمال والأقوال والطاعات التي أمر بها الشارع أو ندب إليها، وقد يكون الاستغفار جبراً لما يكون من تقصير في العبادة، أو اعتذاراً إلى الله تعالى عن الوفاء بشكره على التوفيق بأدائها، ويمكن ملاحظة ذلك في قول الرسول r الاستغفار ثلاث مرات بُعيد التسليم من الصلاة(٢)، لأن وقوف المسلم بين يدي ربه يناجيه في الصلاة يعد من أشرف وأكرم وأعز مواقفه في حياته ولا يدانيه موقف آخر، وهو يمثل رحمة الله تعالى بعبده المسلم وإحسانه

---

(١) سورة النصر : (٣).

(٢) نص الحديث، وتخريجه في الصفحة التالية.

إليه وعنايته به، وفتح باب الخير والغنيمة أمامه ليصعد على مدارج العبودية لربه الرحيم الكريم، فينال بذلك الفوز والرضا منه سبحانه وتعالى.

وإذا علمنا أن الاستغفار قد يمثل اعتذاراً إلى الله تعالى عن الوفاء بشكره على توفيقه بأداء العبادة، فإننا نلحظ هذا المعنى في استغفار الرسول ثلاث مرات r بعيد التسليم من كل صلاة من الصلوات الخمس. فعن ثوبان – رضي الله عنه – قال: ((**كان رسول الله r إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**)) قيل للأوزاعي – وهو أحد رواته –: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله(١). وذلك أن المسلم مهما بذل ليؤدي ما ينبغي عليه لله تعالى – وهو واقف بين يديه في الصلاة – فلن يستطيع ذلك، وبالتالي فهو عاجز عن الوفاء بالشكر له تعالى على توفيقه له؛ لأنه يقف بين يديه هذا الموقف الذي يتألق فيه على مدارج العبودية لربه وخالقه جل وعلا، فتزكو بذلك نفسه، ويطهر قلبه، ويجبر كسره، ويستر عواره الظاهر والباطن، وتشفى أمراضه الظاهرة والباطنة، وتعافى بلواه ظاهراً وباطناً، وتُسد حاجته ولا تتفرق به همومه، بل تجعل كلها هماً واحداً لله تعالى، ولطلب مرضاته، وتتكامل على

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم (٥٩١) ص (٢٣٥).

طريق الطهر، والاستقامة شخصيته، ويفاض عليه من سيده ومولاه رحمةً، وبركةً، وخيراً، وعزاً، وغنىً، ونوراً، ويجد أثر ذلك كله وسواه من الخير في نفسه، وفي حياته، وفي أمره كله ظاهره وباطنه. ومن هو هذا الإنسان الذي أكرم بكل هذا الخير، وسواه مما لا يقع تحت عدٍّ أو حدٍّ مما لا يعلمه إلا الله تعالى؟ إنه الإنسان الذي يحمل في أمعائه رجيعه، ويحمل بين جنبيه نفساً أمَّارة بالسوء إلا ما رحم الله، ولكن الله تعالى أكرم الإنسان المسلم من بين بني الإنسان بهدايته إلى نور الإسلام فشرفه بالمثول بين يديه، والوقوف في ساحة فضله، وجلاله خمس مرات في اليوم والليلة، ومناجاته بكلامه الكريم سبحانه وتعالى، فيا له من شرف، وفضل، ونعمة، وعطاء. والويل كل الويل، والخسران كل الخسران لمن حرم ذلك، فمهما بذل المسلم فلن يوفي هذا الموقف حقه، وما ينبغي فيه من شكر الله تعالى عليه، فكان في الاستغفار مندوحة وفرصة أُتيحت له ليجبر به تقصيره فيما لا يمكنه القيام به من حسن الأداء في الطاعة والتعظيم والشكر لله تعالى.

وفي الاستغفار أبلغ اعتذار عن التقصير في ذلك. ومن ذلك أيضاً قول الرسول r : ((**غفرانك**))(١) يكررها مرتين إثر قضاء الحاجة وخروجه من بيت الخلاء.

---

(١) قال في نيل الأوطار (٧٣/١) الحديث صححه الحاكم وأبو حاتم وقد رواه الخمسة إلا النسائي. قال الألباني في المشكاة (١١٦/١): "إسناده صحيح".

يقول بعض أهل العلم: إنه يستغفر ربه للوقت الذي مضى في قضاء الحاجة بدون ذكر الله(١). وهذا ملحظ معتبر لا يُنكر، غير أنه يمكن إضافة ملحظ آخر، وهو استشعاره r لنعمة تسهيل خروج الأذى، وهي نعمة من الله عظيمة لا يقدر على تيسيرها إلا هو جل جلاله، فالإنسان يأكل المطعومات بألوان متنوعة، ومذاقات مختلفة، ويشرب أشربة كذلك، عن طريق واحد، وهو الفم، ثم تخرج تلك المطعومات، والمشروبات كلٌ من سبيله الخاص به، بخصوصية معينة لكلٍ. ولو اجتمعت الدنيا كلها على أن تصنع معدة تهضم الأطعمة والأشربة بالصورة التي تتم في معدة الإنسان ما كان ذلك ممكناً بحال، ولو توقف خروج الأذى من الإنسان عما هو مألوف لاستحالت حياته إلى جحيم، ولأظلمت الدنيا في وجهه، ولما وجد طعماً لشيء في حياته، ولذلك كان رسول الله r يستشعر نعمة الله عليه في هذا الأمر(٢)، وهي نعمة لا توزن بذهب الدنيا ومعاد ا، ولا يوفيها شكر شاكرٍ.

والذي يظهر للمتأمل في موضوع الاستغفار أنه مطية المسلم لا يستغني عنه، فهو في موقف المستغفر لربه على كل حال يستغفره للخطرات السيئة، ويستغفره لجهله، وعدم معرفته به سبحانه، وبأسمائه وبصفاته، ويستغفره

---

(١) نيل الأوطار (٧٣/١).
(٢) نفس المصدر.

لعجزه عن شكر نعمه الظاهرة والباطنة، ويستغفره من الغفلة التي تغلِّف حياته، ويستغفره توبة، واعتذاراً واعترافاً بالعجز والتقصير والذنب ظاهراً، وباطناً.

والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى أهمية الاستغفار بعد إفاضتهم من المشعر الحرام، قال الله تعالى: b& îy$Yã_ Nà6 øã §ðÐ ¼ ¸M»ù•ã ïÆ Ë OEçÒù& #Œîù Nà6 îs `Ë WxÒù (qáG?$J. ¤rèà2 ÆÐ Ò#•s ÆÐÈè¢J ÆÐ‰Yã ©Ð(rèà2 ÆÐÙ ÇÑÈ û,ÎkŽÒ9Ð `Ù9 ¾Ï7 `Ë OEŽà2 bÎr Nà6 1‰d ©Ð(rèÝáG¤Ð âÝ $Y9Ð Ú $ù& ÑŽ øm ôË (qàÒ‹Ù& ©Ê» Ò‹ïmŽ ÖqàÎ ©Ðžc Î (١) وهو توجيه كريم له دلالاته وأبعاده، والعبرة في الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فإذا علمنا أن الحج هو رحلة العبودية لله عز وجل، وهو أيضاً رحلة الحب والاستسلام لأمر الله تعالى وتعظيمه، وتعظيم ما أمر بتعظيمه بأداء

---

(١) سورة البقرة : (١٩٨-١٩٩).

هذه الفريضة، والوقوف مع تلك الجموع الطاهرة على صعيد عرفات، أدركنا أنه توفيق الله تعالى لعبده الحاج بالوقوف مع هذه الجموع المباركة، وأي جمع أشرف من جمع الحجيج في عرفات؟ إنه الجمع الذي يتجلى عليه المولى جل جلاله بنفسه، ويباهي به ملائكته ويقول لملائكته: ما أراد هؤلاء؟ روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله r قال: **(ما من يوم أكثر من أن يُعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟)**(١). إن التوفيق لمشهد جمع عرفة، ومشاهد الحج، نعمة يعجز الشاكرون عن شكرها، وإن أداء أعمال الحج على الوجه المطلوب الذي أمر به الله تعالى ورسوله r قد لا يتأتى إلا لأناس قلة، خاصة مع تنامي شدة الزحام وكثرة الحجيج. والرسول r يقول: **(الحج عرفة، فمن أدرك ليلة عرفة قبل طلوع الفجر من ليلة جمع فقد تم حجه)** (٢) فالاستغفار في الآية صادف محله، فهو مطلوب بعد إتمام العبادة وحصول النعمة، فتيسير الوقوف بعرفات، ثم الإفاضة بعد ذلك، والمبيت بمزدلفة، والوقوف بالمشعر الحرام لذكر الله تعالى، ثم الإفاضة

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٣٤٨) ص (٥٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥/٢)، حديث (١٩٤٩)، والترمذي (٢٣٧/٣) حديث (٨٨٩)، والنسائي (٢٥٦/٥) حديث (٣٠١٩) واللفظ له، والحاكم (٢٧٨/٢) كلهم من طريق بكير بن عطاء، عن عبدالرحمن بن يعمر الديلي بألفاظ متقاربة، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. وسكت عنه الذهبي.

إلى منى لرمي الجمرات لا يتم ذلك كله إلا بفضل الله وعونه، فعلى من تيسر له ذلك أن يستشعر فضل الله عليه، ويقبل على ساحة الاستغفار لربه الرحيم الغفار.

أنواع المستغفرين

جاء حديث القرآن الكريم عن الاستغفار متنوعاً بتنوع ألفاظه، وصيغه وأنواعه، وبتنوع أوقاته، وبتنوع المستغفرين، ومن خلال ذلك يمكن القول بأن أنواع المستغفرين في القرآن الكريم هم:

١- الملائكة.

٢- الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣- نبينا عليه الصلاة والسلام.

٤- المؤمنون.

وسنتكلم فيما يلي بشيء من التفصيل عن ذلك:

١ - استغفار الملائكة للمؤمنين

ومما يدل على شرف الاستغفار وفضله وأثره أن ملائكة الله تعالى الحاملين لعرشه العظيم يلهجون بالاستغفار للمؤمنين، ويدعون للتائبين المتبعين سبيل الله تعالى بالمغفرة، وبالوقاية من عذاب الجحيم، ودخول الجنة،

قال الله تعالى: ¼çºöm ôBr ¸ ëè%$ bqèÜtz ûïÏ‰Ï$ ¼ :

ûïÏ‰Ï9 brâÝóÇó„r ¾ÍÎ bqäÜsÞr ÍÍ‘ Ï‰ôt2 bqßJÎ=ç

ëÝôÒ$# $VÜär ZJôn§ ãó« @à2 MèÄr $Z/‘ (qäB#ä

ÇÐÈ ÏÆÅgø$# >#‹ã ÍÍgÏr 7=‹Í™ (qã7?$# (qç? ûïÏ‰Ï9

x=¹ `Br ÍÍG?‰ãr ÓÉ$ÅÁ¤ã ÏM»Z_ ÓÍgÅ¡r $Z/‘

ãÍí‘è%$ MR& 7RÎ ÓÍgÍ»ƒÍÉr ÍÍgÅ¯r&r ÍÍgÍ$/#ä ôÏB

7ÍBöƒ ÏN$«Íhì 9$ÈÇ? `Br ÏN$«Íhì 9$#ÍÍgÏr ÇÑÈ Ò‹ÅÁs%$

ù)‰ ‘ q‡FHç¼ rŒ9 •š èqS%yqãS%èàŠÐ »[(١)].

وقد بين هذا النص الكريم من كلام الله تعالى أهمية الاستغفار وشأنه عند الله تعالى، فهؤلاء الملائكة الكرام عليهم السلام الذين يحملون عرش الرحمن جل جلاله، كان من بين مهامهم التي لا يغفلون عنها استغفارهم للمؤمنين. وهذا أمر له دلالاته وأبعاده التي تكشف على أن خير ما يعطاه المؤمن المغفرة من ربه، لأ ا سبيل إلى كل نجاة، وإذا صحت المغفرة للعبد فما بعدها أيسر منها. ولو كان ثمة شيء جديراً باحتلال الصدارة في دعاء هؤلاء الملائكة الكرام سوى طلب المغفرة للمؤمنين لذكروه. ثم ذكروا في دعائهم ما يترتب على المغفرة، من دخول الجنة، والوقاية من عذاب النار. وإنه لأمر جليل جدير بالتأمل والتدبر أن يكون من بين مهام هؤلاء الملائكة الكرام الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم بالمغفرة، وإنه لشرف كبير للمؤمنين أن تذكرهم ملائكة الرحمن الحاملون لعرشه بالدعاء والاستغفار لهم، وهذا يدل على أن المؤمن موصول النسب معروف، فنسبه الإيماني يوصله بهؤلاء الملائكة الكرام، وهو معروف بذلك في السموات العلى، وإن جهله أهل الأرض، أو بعضهم، أو أنكروه، فلا بأس عليه من ذلك ولا ضير، فعلى المؤمن أن يعرف ذلك، ويستشعر قيمته، ويقدره حق قدره، معتزاً، فرحاً به. والآيات الكريمة

---

(١) سورة غافر : (٧-٩).

تبين مهام هؤلاء الملائكة الكرام وأ ـا التسبيح لله تعالى والإيمان به، والاستغفار للمؤمنين، والدعاء لهم بالمغفرة والوقاية من عذاب الجحيم، ودخول جنات عدن التي وعدهم الله تعالى بها.

ولم يقتصر دعاء الملائكة الكرام للمؤمنين بدخول الجنة، والوقاية من السيئات، بل شمل معهم من صلح من آبائهم، وأزواجهم، وذرياتهم، وذلك دالٌ على تكريم الله تعالى للمؤمنين، وأنه بسببهم يكرم من صلح

من آبائهم، وأزواجهم، وذرياتهم. والملائكة عليهم السلام في هذا الدعاء الكريم، دخلوا على الله تعالى من باب الربوبية الواسع الذي وسع خلقه أجمعين، فتوسلوا إليه بذلك. فالملائكة والأنبياء عليهم السلام، والصالحون، والعاصون، والكفار، والمنافقون كلهم يلج هذا الباب، فلا غنى لهم عنه، حتى إبليس – عليه لعنة الله – دخل من هذا الباب حين قال: ¼ ‘ Éz

» bqèZ7ÖaÜQø/ 4<Î þÎèR'ù (١) فالله تعالى هو رب الخلق جميعاً

فلا رب لهم غيره، ولا معبود سواه، ثم قدم الملائكة الكرام بين يدي دعائهم الثناء على الله تعالى بما هو أهله من الجلال والفضل والكمال وسعة الرحمة،

---

(١) سورة ص : (٧٩).

والعلم، فقالوا: ¼ ‘ZÆr $ÆèMr @à2 «ó§ôJZ¿ r%ÜtÅV$ «(١) وهذا من كمال أدبهم مع الله تعالى، ومعرفتهم به سبحانه وتعالى، فسبحان من وسعت رحمته كل شيء وأحاط بكل شيء علماً، وهو منهج في الدعاء كريم، يعرضه القرآن الكريم ليعرفه المسلمون ويأخذوا به.

كما ورد استغفار الملائكة في موضع آخر من القرآن الكريم وذلك في قول الله تعالى: ¼ Jø=Í3è„çqîS bqt2‰ï¥ÍÏ‘ «(٢) Ïr¿ÝøFó„ršÜï šc Jï`îF{$’ôÇÏ الآية، والمراد بمن في الأرض في هذه الآية: قد يكون هم المؤمنين، وبذلك يكون في هذه الآية عموم خصصته الآيات التي في سورة غافر. ويكون المراد بالملائكة حملة العرش. وقيل: المراد بهم جميع ملائكة السماء. وقيل: إن حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين، ولله ملائكة يستغفرون لمن في الأرض، ومَنْ في الأرض على هذا يعم المسلم والكافر، فيكون الاستغفار من الملائكة لكل منهما بما يناسبه، فهو للمسلم من الذنوب والخطايا وللكافر بطلب الهداية للإسلام، ويمكن أن يكون الاستغفار من الملائكة بمعنى طلب الحِلْم

(١) سورة غافر : (٧).
(٢) سورة الشورى : (٥).

من الله تعالى بألا يعاجلهم بالانتقام "للمسلمين والكفار" فيكون استغفارهم عاماً لكل من في الأرض(١)، ورحم الله الإمام مطرفاً حين قال: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين(٢).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/١٦)، وتفسير الزمخشري (٣٩٧/٣)، وتفسير الماوردي (٥١٢/٣).
(٢) تفسير الماوردي (٥١٢/٣).

٢- استغفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

والأنبياء – عليهم السلام – لاذوا بربهم، وتعلقوا بفضله في ساحة غفرانه، يستغفرونه، راجين مغفرته الواسعة، وقد سبق وأن أشرنا بأن استغفار الأنبياء – عليهم السلام – هو استغفار يناسب مقام النبوة الشريف.

فآدم – عليه السلام – طلب المغفرة مع زوجه حواء و$Z/‘ Ÿw$% ¼

`Ï ûðqãZ9 $YÕmö?r $Z9 ëÿø? Ó9©bÎr $Z¡ø‾R& $YH÷ß

.(١)» `ƒÎÅ» , ø‹$

ونوح – عليه السلام – قال: £“ $Î°qïr ’í ëÿø$Éè§¼

ÏM»YÏBs-3ø‹r ûüÎÏBs-3tïr $ÎÏBsèà š_ Ñø‾ @zŠ `Jïr

¼çRÎ Nà/‘ {rèÿøFÏ%$¼، وأمر قومه بالاستغفار قائلاً لهم: (٢)»

(١) سورة الأعراف : (٢٣).
(٢) سورة نوح : (٢٨).

.% šc Î ÿøY# «(١)» الآية.

وإبراهيم – عليه السلام – طمع في المغفرة لخطيئته يوم الدين فقال: ¼

(٢)» Éú ïÏ!$Qöf ÓÉ«ÿÜz 'í•ÿøf b& ßJÔ& ü ï‰Ïs

وطلبها لنفسه ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب فقال: ¼ ‘/Y$$ø ÿÜ

(٣)» Ü$¡Ås ÊqàÒf Pöf ûüÏÏBs3ÜÏr £ $Î0qÏr 'í وكان

قد وعد والده بأن يستغفر الله له حين قال له: ¼ ™»=Ñ ãø7

(٤)» $ÿÜym 'Î šc %. ¼çRÎ þÎn 79 ãÿøGÕ'™ وحين قال

له: ¼ ÿÜ•ÿøGÕ'™ 79 b& $Br 79 Î«Ï$ `Ï «Ï$ `Ï 79 ãÓ«

.(٥)»

---

(١) سورة نوح : (١٠).
(٢) سورة الشعراء : (٨٢).
(٣) سورة إبراهيم : (٤١).
(٤) سورة مريم : (٤٧).
(٥) سورة الممتحنة : (٤).

ويعقوب – عليه السلام – وعد بنيه بأن يستغفر لهم فقال:

ÐŠÏmsÙ$Ïaqèóø$qè ¼çRÎ) þÎr Ïna9 èÏÝóGÏ™& š’ ô™ ¼

èÏÝóGÏ™$$R$/'»ƒ ¨qø$% ¼ وذلك بعد أن طلب منه بنوه ذلك (١)»

.(٢)» ûüÏÜ»z ZaRÎ) $Z/qçé $Z9

ويوسف – عليه السلام – طلب المغفرة لإخوته فقال:

.(٣)» šú üÏÏm°Ù$$amö& qèr Ïna9 ª! $èÏÝóƒ ¼ الآية.

وعيسى – عليه السلام – يقول في عرصات القيامة بين يدي ربه: ¼

MR& 7Rîù Ïng9 èÏÝó? bÎr 8Š$6ä Ïnîù Ïnæé èè bÎ

.(٤)» ÐŠÅtø$aÍèø$

وداود – عليه السلام – خر راكعاً بين يدي ربه بعد أن استغفره فغفر

---

(١) سورة يوسف : (٩٨).
(٢) سورة يوسف : (٩٧).
(٣) سورة يوسف : (٩٢).
(٤) سورة المائدة : (١١٨).

له. قال تعالى: ¼çÞ‘ •ÿøGÕ$Ù ç»YGù $JR& Ø¼#Š £ßr ¼ ¼ãl bÎr 7ÿ°E ¼ç9 $Rÿóù ÇÍÈ) >$R&r $èÏ#‘ Sz r .(١)» 7U $«B `óãnr 4"ø9 $R‰ZÏã

وسليمان – عليه السلام – طلب الملك بطلب المغفرة حين قال: .`Ï B ‰nI{ ÓÈ7^ƒ x v ‰Zã ’Í é=dr ’Í ÿøÉ‘ ¼ .(٢)» Ù $dqÈ MR& 7Î ü ‰è/ الآية.

وموسى – عليه السلام – قال بعد أن قتل القبطي: ¼ ‘ ’Îé ’Í ÿøÉ‘ ¼ الآية فأعطاه الله ما طلب ¼ .(٣)» ’Í ÿøÉ‘ ÓÅ ÿR ÏÎ=ß وأشرك أخاه هارون .(٤)» Ïms qè ¼çÎ ÿÏ •ÿóù

(١) سورة ص : (٢٤، ٢٥).
(٢) سورة ص : (٣٥).
(٣) سورة القصص : (١٦).
(٤) سورة القصص : (١٦).

في طلب المغفرة قائلاً: ¼$ øöïäí ’ r ÅÓ&r Sš&ÅÝ$ Î †

. (١)» šú üÏ&Ïmø&ÅS0¼$ Ïg MR&r 7ÏHq‘

(١) سورة الأعراف : (١٥١).

٣- استغفار النبي r

ونبينا الكريم سيدنا رسول الله r جاء أمر الله تعالى له بالاستغفار في مواضع متعددة من القرآن الكريم، ومن ذلك الآيات التالية: ١- ¼ ß# ãà$ففي هذه الآية يأمره ربه بأن يستغفر لصحابته الكرام رضي الله عنهم، وقرن هذا الأمر بأمره الكريم بالعفو عنهم ومشاورتهم.

٢- ¼ $VŠïmß#Yqàî b%. ©$žc Ï ©$ïÿóGÕ$.

٣- ¼ `Jÿ bŒù ßïÏ© ÇJè7ï 8qÈ<ø6Õ$#Œîù

Ò<ïmß Öqàî ©$žc Ï ©$ãç; ÿóGÕ$ ßÏ¥B Mø©

(١) سورة آل عمران : (١٥٩).
(٢) سورة النساء : (١٠٦).

.(١)»

š• ÎR%Î ëÿýøGÕ'$r Ąm «ł $‰ãr žc Ĵ ŽÆĆ $ù ¼ - ٤

.(٢)» ì» 6 ¤ÿY$r ëÅè¤$ 7 Îh' Ÿ‰ðtž ¤Î™r

š• ÎR%Î ëÿýøGÕ'$r ª! $žvĴ m»9Ĵ Ìw ¼çR& Ó-æ$ù ¼ - ٥

والخطاب في هاتين الآيتين وإن (٣)» ÏM»ŸÏ¹$3¤$r ûüÏ¹$3¤$r كان للنبي r لكنه يعم كل مكلف من أمته.

Ö¤ŷÎ ¢$ bĴ ¢$ £ç; ëÿýøGÕ'$r £ßèƒ$6ù ¼ - ٦

.(٤)» ÌÏm§

b%Ÿ2 ¼çRĴ çëÿýøGÕ'$r 7 Îh' Ÿ‰ðtž ¤Îmù ¼ - ٧

---

(١) سورة النور : (٦٢).
(٢) سورة غافر : (٥٥).
(٣) سورة محمد : (١٩).
(٤) سورة الممتحنة : (١٢).

r ?$RRS «(١)، كما وردت آيات كريمة تتحدث عن استغفار النبي للمنافقين رغبة في إسلامهم، ولكنهم لم يكونوا محلاً قابلاً للإسلام فجاء النص على أن الاستغفار – والحالة هذه – لا يفيدهم شيئاً حتى لو كان هذا الاستغفار سبعين مرة، فالاستغفار وعدمه في حقهم سواء، فهم محل غير قابل للإسلام. قال تعالى: bÎ tbqçGó@ Ÿw ÷r& tbqçGÒ$¼ وقال «(٢) tbqç¡$•ÿø ` =ù ÆD ûüÏèÒ™ tbqçGó@ ÿøGó@ tb9 P÷& ÓÇ9 NÿøGÒ& ÓÎÅæ á¤q™ ¼ سبحانه: Pö)ø$ “Ïmö Ÿw @$ bÎ tbqç¡$•ÿø ` 9 tbqç وهؤلاء المنافقون الرافضون للإسلام المحاربون له لا «(٣) šú üÉÅ»ÿø$ خير فيهم، ولا خير لهم يرجونه فمصيرهم إلى النار معلوم، ولذلك فهم

---

(١) سورة النصر : (٣).
(٢) سورة التوبة : (٨٠).
(٣) سورة المنافقون : (٦).

معرضون عن كل خير. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (١) ورسولنا ﷺ رسول المرحمة، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم يستغفر الله تعالى لذنوبهم، والله تعالى تواب رحيم يرحم المستغفرين، ويرحم الذين يستغفر لهم الرسول ﷺ في حياته من المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (٢) وذلك الاستغفار منه للمؤمنين في حياته ﷺ، وليس بعد مماته. قال ابن كثير في تفسيره: (يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ (أي في حياته) فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإ ـم إذا فعلوا ذلك تاب الله

---

(١) سورة المنافقون : (٥).
(٢) سورة النساء : (٦٤).

عليهم ورحمهم، وغفر لهم ولهذا قال: ¼ qè ` ¨Br& ©! $# (#ÿrâ ‘ $¨Y/ $¨Z9 $VJŠÏm§ $VJ

»(١).

(١) تفسير ابن كثير (١/٥١٩).

٤- استغفار المؤمنين

قال ابن تيمية رحمه الله: (فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم وأكبر طاعاتهم وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب)(١).

وقد جاءت آيات كريمة تتحدث عن استغفار المؤمنين، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ¼ * r™$ãíf(þqBó•ïy` ßsî<4Bø ïÙà6Nø إلى الآية ¼ r_Ê$gJ¹0ßNr ÷ö{FöJ» «(٢).

٢- قوله سبحانه: ¼ ïÏ%©!$# šúqàßJ÷ès? bqßsÎ=øÏ%$# $YZ/'$YRÎ)$YB#ä(٣).

٣- قوله عز وجل: ¼ bÎ)ûüÏ%©!$#ÉE3ßJø9$#Ÿ'ûÏ_»M,ÍqãèÅ_Ÿ¨ÈÎ/Ç

---

(١) التفسير الكبير (٤/٣٨٦-٣٨٧).
(٢) سورة آل عمران: (١٣٣ إلى ١٣٥).
(٣) سورة آل عمران: (١٦).

ûüÏÅtê 7ÏºŒ @ö% (qç. tÅÎ tÅ‘ tG9?#ä $B ûïÉÏ{ #ä

ïê í$tãF{$r ÇÐÈ bqãfï $B @èøS`Ï Ww<î% (qç. ÇÏÈ

.(١)» brãÏýGó„

٤- قوله عز من قائل: Ú$ù& ß‰øm ôÏ (qàÒ<ï& Oê¼ :

،(٢)» Ò<ïm§ Ötãî ©$žc Î ©$(rãÏýGÕ$r ã¨ $Y9$

على أن ثمة آيات كريمة جاءت تحث المؤمنين على الاستغفار، ومنها ما جاء في صيغة الأمر، ومنها ما جاء في صيغة الجملة الخبرية، ولكن معناها الأمر، ومن ذلك:

٥- قول الله جل جلاله: ©$žc Î ©$(rãÏýGÕ$r ¼

Ötãî

(١) سورة الذاريات : (١٥إلى ١٨).
(٢) سورة البقرة : (١٩٩).

.(١)» Ò‹ïmS

٦- قوله عز من قائل: Nîâƒ r& #äþrR @Jèƒ `Br ¼

.(٢)» $VŠïmS#Yqàî ©$‰Éƒ ©$ÌÏýGó„ Oê¼ç¡øR

٧- قوله تعالى: Nèr NG/Éèa ª!$š c %. $Br ¼

.(٣)» brãÏýGó„

٨- قوله سبحانه: Ø) (þäBsã b& ¨ $Z9$ ìZB $Br ¼

þZR NãÏÜ? b& wÎ) NG/‘ (rãÏýGó„r 3“ ‰G$ãèä!`

û,ÎrF{$

---

(١) سورة المزمل : (٢٠).
(٢) سورة البقرة : (١١٠).
(٣) سورة الأنفال : (٣٣).

.(١)» wöçeÜ#‹è¢¢ãã?ù=ß

كما ورد النهي للنبي وللمؤمنين عن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على شركهم، قال تعالى: ¼ $B %. šcöÉZ=ÿ ¢Ó¨Bä#ãšú ï‰Ïs)ø9$#

.`Ïiè’ûré&(#þçÝ2 ö9r ûüÅ2Îô³tÏ÷rãÝóÇó„b&

ولم يكن (٢)» ÉŠÅgø:$#Ü=sô¹&tÅ&tÇšú ü7?$B ‰è/

استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الذي مات على كفره إلا وفاء بوعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار. قال تعالى: ¼ $Br %. šcöÉ9ø9$#â‘ÿ¾ÏM

ûüÏ?$#=ùçf)$d‰ãrç‰ãöqB`ãxî)ïšÎ¼ OŠÏ¹•ç)

.(٣)» ÒŠÎmïr& OŠÏ¹•ç)bÎçZÏB&Ž?!#Ãã¼çR&ÿã

---

(١) سورة الكهف : (٥٥).
(٢) سورة التوبة : (١١٣).
(٣) سورة التوبة : (١١٤).

أصناف المحجوبين عن المغفرة

ظهر لنا فيما تقدم ذكره من آيات كريمة أن الاستغفار مطلوب من خلق الله المكلفين، سواء كانوا أنبياء، أو مؤمنين، أو كافرين، أو منافقين، أو عصاة مذنبين من المسلمين، ويفسر الاستغفار بحسب تعلقه بكل فئة من فئات هؤلاء الخلق. ويتضح للمتأمل في نصوص القرآن الكريم أن المغفرة من الله تعالى لم تحجب إلا عن:

١) من مات على كفره من الكافرين.

٢) أو على شركه من المشركين.

٣) أو على نفاقه من المنافقين.

٤) أو على ذنب من الكبائر التي تحول بين صاحبها وبين المغفرة فلم يتب منها حتى مات على ذلك. وذلك أن الله تعالى يغفر الذنوب كلها إذا تيب منها قبل الممات. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة: الكفر، والشرك، وغيرهما يغفرها لمن تاب منها، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى، بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة)(١).

---

(١) التفسير الكبير لابن تيمية (٦/٤٤).

وما عدا هذه الأصناف، فهم على أمل ورجاء بالمغفرة، ولعل ذلك يستفاد مما تدل عليه النصوص القرآنية الكريمة التالية:

- قال الله تعالى: ¼ bÎ)$ûïÏ%©!$# (qãZtB#ä ¢OèO (rãxÿx. ¢OèO (qãZtB#ä

¢OèO (rãxÿx. ¢O$#(rߊ#yŠø$# #\øÿä. öN©9 Ça3tƒ ª!$# tÏÿøóuŠÏ9 öNçlm; Ÿwr

öNåkuÏ‰ôgu‹Ï9

™WÎ6y™ «(١).

- وقال سبحانه: ¼ bÎ)$ûïÏ%©!$# (rãxÿx. (rßJn=sßr (qç9 Ça3tƒ ª!$#

tÏÿøóuŠÏ9 öNçlm; Ÿwr öNåkuÏ‰ôgu‹Ï9 $)ƒÌÛ Çtø $)ƒÌÛ Ç¨ÎÈ Ÿwr zOŸgy_ , _

z»Ï$#ûïÏ$ÎŸkŽ$ &/‰t/r& 4 b%x.r ƒ7Ï9ºŒ 'n?ã $!$# #ZŽÅ¡o„ «(٢).

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: ((يخبر الله تعالى عمن دخل في

(١) سورة النساء: (١٣٧).
(٢) سورة النساء: (١٦٨-١٦٩).

الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع، واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى))[١]. ولهذا قال: ¼ (qèB#ä ûïÏ%©!$# tbqè

ÓÉ©#ÿÏÿä ¨rß#Šø9$# ©!$# (rèÿ. ©!$# (qèB#ä ©!$# (rèÿ. ©!$#

ونقل بسنده [٢] » Ìx‹Î™ ÏNºuöÝÏj ÏM÷zW{$# ÏNºuqçR ÏM÷zW{$# ¬! $Çaf

عن

ابن عباس في قوله تعالى: ¼ ÿÏÿä ¨rß#Šø9$# ©!$# « قال: (تمادوا على كفرهم حتى ماتوا)[٣].

قال صاحب التفسير الوسيط: ((قال قتادة: آمنت اليهود بالتوراة، ثم كفرت بمخالفتها، ثم آمنت بالإنجيل، ثم كفرت بمخالفته ¼ ¨rß#Šø9$# ©!$#

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٦٦/١).
(٢) سورة النساء : (١٣٧).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٠٩١/٤) برقم (٦١١٤).

» ÑÇç; •Ïýó‹Ï ª! $ÇÃƒ ÓÐ¼ .(١)((والقرآن) r بمحمد « #•Ïýä

((ما أقاموا على ذلك؛ لأن الله أخبر أنه يغفر كفر الكافر إذا انتهى. وإذا أطلق القول بأنه لا يغفر لهم علم أن المراد به ما أقاموا عليه))(٢). وهذا الكلام يستدل عليه ببعض ما ورد في القرآن الكريم من قول الله تعالى: ¼

=™ ‰ $B Oßϑ ëÏýóÃ‡qßÇ^ƒ bÎ ‡ÿëÏÝ2 `ƒÏ‰ϑ @è

È‹Î™ `ã ‡r‰ ¹ r ‡rëÏ. ûïÏ‰$Ïbρ ¼ :وقوله سبحانه (٣)»

وبذلك (٤)» ÓÇç; ª! $•Ïýƒ `=ù ÖÏýä ÑèÏr ‡qè%B ÑÈ‹ ¹ $

‡qß=ßr ‡rëÏ. ûïÏ‰$Ïbρ ¼ :يفسر قول الله تعالى في الآية الثانية

žvÎ ÇïÑÈ $)ƒÌÛ ÑßƒÏ‰ÏÏ ÏŵÏr ÑßϑÏ •Ïýó‹Ï ª! $ÇÃƒ Ñϑ

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن للواحدي (١٢٦/٢).
(٢) نفس المصدر.
(٣) سورة الأنفال : (٣٨).
(٤) سورة محمد : (٣٤).

¼ : Oϒg_ , fÛ «(١)» الآية، قال القرطبي في تفسير قول الله تعالى

:» ÑÇ9 •ÿýø×ÿ ª¦$ Çƒf Ñ9 «: (هذا فيمن يموت على كفره ولم يتب)(٢)، وكذلك قوله عز وجل: ¼ 8Žêçb& ëÿýøf Ẅ ©$bÎ وقوله سبحانه في «(٣)» â$±„ ` Jÿ 7ÿŒ brš$B ëÿýøfr ¾ìî المنافقين:

ûüÏèÖ™ Ñç; ëÿýøçó@ bÎ Ñç; ëÿýøçó@ Ẅ ÷& Ñç; ëÿýøÖ™$¼

¼ : «(٤)» الآية، وقوله جل من قائل فيهم Ñç; ª¦$•ÿýø ` =ù ØÑD

`9 Ñç; ëÿýøçó@ Ñ9 Þ& ÓÑ9 Nëÿýø™& ÓÎgšæ â‡q™

---

(١) سورة النساء : (١٦٨-١٦٩).
(٢) تفسير القرطبي (٢٠/٦).
(٣) سورة النساء: (٤٨، ١١٦).
(٤) سورة التوبة : (٨٠).

[illegible] «(١). وهؤلاء المنافقون الذين نفى الله تعالى عنهم المغفرة هم الذين علم تعالى أ ـم سيموتون على نفاقهم، وماتوا على ذلك(٢). فسبحان الذي أتاح فرصة نوال مغفرته أمام الكافرين ليتوبوا إليه مستغفرين من كفرهم قبل أن يفاجئهم الأجل وهم على كفرهم فيموتوا على ذلك، فلا أمل لهم عندئذ في مغفرة الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكل وعيد في القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس)(٣).

ولعل فيما تقدم إنذاراً لكل مقيم على معصية ليقلع عنها ويتوب إلى الله تعالى منها، حتى لا تتحول إلى كبيرة، وحتى لا يباغت صاحبها الأجل وهو مقيم عليها غير تائب منها فيخسر بذلك آخرته وذلك هو الخسران المبين. قال تعالى: [illegible]

---

(١) سورة المنافقون : (٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢٨/١٨).
(٣) التفسير الكبير لابن تيمية (٤٧/٦).

«[١].

---

(١) سورة الزمر: (١٥).

أثر المعاصي والذنوب على الحياة

الاستغفار بما يدل عليه (قولاً وعملاً) معلم من معالم الطاعة لله، والإنابة إليه، ومحبته، وبالمقابل فإن مفهوم ما يدل عليه النص القرآني الكريم

في قوله تعالى: ¼ ÏnØ) #(bÇqÊ Sê ÒaÆ‘ #(raÿØFM$ Ea&r

“ ÏE @ä ÏNs¬ar ‘ kvi B @ _ & #<Î) $Z ¡ m $è»GB NaèÏJã

Ïöf > #‹ ã ÒaØæ S% { & pÕÎù #(qQ? bÎr ¼a#Ò ù @Ò ù

أن سوء الحياة واضطرابها، وجفاف نبع القيم والأخلاق فيها، (١) » ÄÎ.

وانحسار المعاني الكريمة عن ساحتها سببُه المعاصي والذنوب، فهي الحالقة لكل خير، الحارقة لبهجة الحياة وبسمتها وجمالها، وهي غذاء الفتن والبلايا والرزايا، وهي سبب نقص الأرزاق وعسرها، وقلة الأمطار، والمياه وندرتها، وهي سبب انتشار الجراثيم الآدمية وما يقابلها، والحيوانية، الظاهرة والباطنة، والأوبئة والأمراض الكثيرة المتنوعة، وهي سبب الغم والهم، والنكد، والضيق، والجزع، والخوف، والاضطراب البدني، والصحي والنفسي، وهي سبب

(١) سورة هود : (٣).

التقاطع والتدابر والتباغض والتحاسد، والبغي، والظلم، وهي سبب الهزيمة في الظاهر والباطن، وسبب تسلط الأعداء من الإنس والجن، وسبب لكل خذلان ومذلة وخسران. نسأل الله تعالى الكريم الحليم رب العرش العظيم أن يعزنا بطاعته، ولا يذلَّنا بمعصيته.

ومبحث آثار الذنوب والمعاصي على العبد في جميع مجالات حياته وأحواله، مبحث واسع حري بالتأمل والفهم، وذلك أن جميع الشرور سببها الذنوب، فما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بالاستغفار والتوبة. والنبهاء العقلاء في الأمة – وهم يرصدون حركة الأمم الأخرى تقدماً وتأخراً، وعزاً وذلاً، وغنىً وفقراً، ونصراً وهزيمةً، واجتماعاً وتفرقاً – يدركون بحسهم المرهف، وعقلهم اليقظ أثر الذنوب والمعاصي على أمتهم.

إن هناك ثوابت في الكون قدرها الله تعالى في كونه ينبغي أن يعيها المسلم حتى يعرف نتائج عمله وحركته في الحياة، فلا يتيه في بيداء الحيرة، كما تاه ويتيه غيره. والمسلم حين يبحث عن الأسباب ومسبباتها، فإنه يرجع تلك الأسباب إلى مسببها وموجدها، وهو الله تعالى الذي خلق كونه، وخلق القوانين والثوابت التي يسير بها هذا الكون، **ومن هذه القوانين والثوابت:** أن هذا الكون وما فيه لم يوجد صدفة، أو يخلق عبثاً، بل خلقه الله تعالى وأوجده لحكمة وغاية، وهي متمثلة في أن يعرف العباد المخلوقون ربهم فيعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ومن أجل ذلك بعث الله تعالى رسله

مبشرين ومنذرين؛ ليعلموا الخلق بذلك، قال تعالى: ¼ ûïÎÅ6B WXMS'•

@ÌS"9$%è/ Bq ãn «! $'?ã Ä $Z=Ï bqä3ƒ x¥Ï ûïÍ‘É‹YãBr

«(١) وقال سبحانه: ¼ bÎr BÅÌÅô B ÷wÎ) z Ÿx $kŽÏù ÖÉR» (٢)

فمن آمن وصدَّق، وأطاع، فله الخير في الدنيا والآخرة، ومن كفر وكذَّب، وتمرَّد، فعليه أن يواجه نتائج ذلك عاجلاً وآجلاً.

ومن الثوابت: أن المسلم في هذه الحياة لا يعيش كما يريد، كسْباً، ونكاحاً، وأكلاً، وشرباً، وكلاماً، وسماعاً، ولباساً، وتصرفاً، في الحياة وتمتعاً بها، وبمباهجها بل يعيش ويتصرف كما يريد له خالقه، وسيده ومولاه في ذلك كله وسواه، مما يغطي جوانب حياته كلها، وبناء على ذلك فلا يقيس المسلم حياته بحياة الكفار، ولا شئونه بشئو ـم، فالمسلم بإسلامه محاط بالتكليف الإلهي الذي يغطي حياته كلها أمراً و ياً، وهو بذلك مثاب أو معاقب، فله الثواب بالطاعة والامتثال، وعليه العقاب بالتمرد والعصيان، ولو ترك بدون عقاب لهلك وأهلك غيره، وانتهى أمره إلى البوار والخسران، ولكان مصيره إلى جهنم وبئس القرار. وليس هناك أضرّ على العبد المسلم من

---

(١) سورة النساء : (١٦٥).

(٢) سورة فاطر : (٢٤).

الذنوب والمعاصي.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: ((وللمعاصي من الآثار القبيحة والمذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله))(١).

وقد أفاض رحمه الله تعالى إفاضة واسعة وجميلة، معدداً ومبيناً آثار الذنوب والمعاصي الرهيبة المدمرة على صاحبها، فمما ذكره: ((أ ا تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة))(٢).

ونصوص القرآن الكريم تبين أن الطاعة مجلبة للرزق، والمعصية مجلبة للفقر، فما استجلب الرزق بمثل الطاعة وترك المعاصي، والناس غير المؤمنين في موضوع سعة الرزق وتقديره مضطربون، ويرجعون أسباب ذلك إلى عوامل بعيدة كل البعد عن الحقيقة في هذا الموضوع، والحقيقة الثابتة الخالدة أن بسط الرزق وقَدْره بيد الله تعالى، فهو سبحانه وحده الذي يبسط الرزق ويقدره كما بيَّن في كتابه العزيز، ولكن كيف يعرف الناس أن للمعصية أثراً كبيراً في نقص الرزق وقلته؟ والجواب أن معرفة ذلك وإدراكه تكون عن طريق معرفة سنن الله في خلقه، من خلال تدبر كتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم، ومن خلال النظر في كتابه المنظور وهو كتاب الكون الذي ينطق بسنن الله الثابتة فيه، فأين المعتبرون؟ وأين العالمون بذلك الذين يدركون

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص (٥٦).
(٢) نفس المصدر ص (٨٩).

حقائق القرآن

وحقائق الكون، ويقفون على حقيقة أن المعاصي والذنوب ما فشت في أمة وجهرت بها إلا كان ذلك سبباً في طمس معالمها واندثارها وهلاكها؟ والعقلاء النبهاء في هذه الأمة هم الذين يعرفون سنن الله الثابتة التي لا تتخلف، ويحذرون أمتهم من مغبة الذنوب والمعاصي وآثارها الرهيبة المدمرة، ويأخذون على أيدي السفهاء وهم كثير فيها، ولا يُمَكِّنو م من مرادهم في الفساد والإفساد، فالسفيه لا تهمه مصلحة أمته بقدر ما تهمه مصلحته، فهو يعيش فقط لبطنه وشهواته ومصالحه، يلبس لكل مناسبة زيها المناسب، ويرقص في كل عرس، الغاية عنده تبرر الوسيلة. وإن مسئولية العقلاء كبيرة في الأخذ على أيدي السفهاء، وإيقافهم عند حدهم حتى لا تغرق سفينة الأمة وهي تمخر أمواج الحياة، سائرة نحو تحقيق غاياتها.

وقد بيَّن حديث السفينة موقف العقلاء من السفهاء حين يريد هؤلاء السفهاء العبث بحياة الآخرين. جاء قول المصطفى ﷺ فيما رواه عنه النعمان بن بشير: ((**مثل القائم على حدود الله، والواقِعِ فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا، فإن**

يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))(١). جاء هذا القول النبوي الكريم معلماً من معالم الهدي النبوي في بيان مسئولية أهل الحل والعقد، والعقل والفهم والرشاد في المحافظة على سلامة سفينة الأمة، وعدم ترك الفرصة للحمقى والسفهاء حتى لا يُغرقوا تلك السفينة من أجل تحقيق مطامعهم، ففي إيقافهم عند حدهم بالأخذ على أيديهم نجاة لهم، ونجاة للمجتمع الذي يعيشون فيه، وفي ذلك صورة مشرقة ورائعة للمجتمع الذي يدرك فيه أفراده العقلاء النبهاء أهمية الطاعة لله، والاستقامة على شرعه، وخطر المعاصي وتفشي الذنوب، وذلك أن للذنوب – إذا تفشت في مجتمع ما، وجاهر بها أفراده – خطراً ماحقاً يأتي على الأخضر واليابس، فيهلك الحرث والنسل في ذلك المجتمع.

ومن آثارها – أي الذنوب والمعاصي – أ ـا تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن، والنفوس، والصلات، والتجارات، والمكاسب، والأوقات، ويدرك هذه الحقائق وسواها من الناس من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فيرى ببصره، ويدرك ببصيرته حقائق قول الحق تبارك وتعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، باب: هل يقرع في القسمة؟ والاستهام فيه، حديث رقم (٢٤٩٣).

$g<ïÛf ØZÍJÖB ØZÏB#ä ÔMR$Ÿ2 ØZf•% WWB ª! $> ŽÑr ¼

«! $ ÉãÑÎ ÔN•ÿ 6 ù 5%3B è@ä `Ï #‰î ' $gèéí

{qR$Ÿ2 $JÎ Å$öø, ØÆqà ØÆ ¨ $6Ï ª! $ $g%Œ'ù

» šc qãZÓÁƒ (١) ماثلة في الحياة كضوء الشمس في رابعة النهار، لا يغفل عنها إلا من طمس الله بصيرته. والعبرة في الآية الكريمة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. جاء في الحديث القدسي: ((**وعزتي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه إلى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب**))(٢) وذلك كله وسواه يدل على خطر الذنوب والمعاصي، وأثرها الفاجع المخيف على الحياة في جميع مجالاتها.

ولا ينبغي للمسلم العاقل أن يغتر بظاهر حال المتجرئين على طاعة الله، وعلى شرعه العظيم، بما هم عليه من الأموال والأولاد وسوى ذلك من متاع

---

(١) سورة النحل : (١١٢).

(٢) الجواب الكافي ص (٨٠) وانظر: مجمع الزوائد (٣٠٧/١٠).

الدنيا، فإن ذلك لا يناقض الحقيقة الخالدة المسطورة في كتاب الله تعالى في

قوله سبحانه: ¼ ’î 7 í»9rév¥aqrs‘r ©$brš$ta ûïÏ‰Gsbî

» ûüÏŒF{$ (١) فالله جل جلاله أبى إلا أن يذل من عصاه. والوليد

ابن المغيرة قد مكَّن الله له بما أعطاه من المال الممدود، والبنين الشهود، وبما مهد له من التمهيد، على شدة كفره، وقوة شكيمته في الكفر، ومكانته في قومه، إلا أنه مع ذلك كله مهين حقير، يحس بمهانته وحقارته في أعماق نفسه، وبؤرة شعوره، وهو مهين حقير عند الله تعالى، وعند رسوله r ، وعند

ملائكته الكرام، وعند عباده المؤمنين، قال تعالى: ¼ @ä ôÜÏêŸwr

Îö, tj 8$ZB ÇÈ Ò<ÜÝÎ ¥$±B ÷$Fd ÇÈ AüqB 7$žm

#Œ b%. b& ÇÌÈ AŠÏ– 7ÏºŒ ‰è/ @çã ÇÈ AŠÏ& %Gèà

A$B

---

(١) سورة المجادلة : (٢٠).

ûüÏ/r «(١). إن المعاصي تحدث في النفس من العاهات والآفات، والذل، والخزايا، والرزايا، والمصائب، والمعايب، مما لا يعلمه إلا الله تعالى. ويجيء الاستغفار واحة أمن وأمان يفيء إلى ظلالها العبد المذنب المستغفر، ويستشعر في نفسه – وهو يستغفر ربه ويتوب إليه – فضل ربه الواسع ورحمته العظيمة حيث لم يعاجله بالعقوبة، ولم يفضحه أمام خلقه بل ستره وأمهله وهو المطلع، والقادر عليه، وفتح له باب الاستغفار، ليعود إليه طالباً منه المغفرة والرحمة.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الاستغفار تشجيع لأهل المعاصي والسيئات، فليس الاستغفار وسيلة للتلاعب أو العبث بأوامر الله تعالى، ونواهيه، وليس هو في ذات الوقت تحريك اللسان والشفتين بقول: ((أستغفر الله)) مع إجرام القلب، وخبث النفس بالمعاصي وإقامتهما على ذلك، فذلك هو سبيل الحمقى المغرورين الغافلين الساهين في غيهم الذين كذبت عليهم أنفسهم، وغرتهم شياطينهم من الجن والإنس بأنه لا خوف عليهم ما داموا يقولون: ((أستغفر الله)).

إن الاستغفار كما بينه القرآن الكريم لا بد فيه من النية الصادقة، والحركة الصالحة، التي تدل على رجوع العبد إلى الله تعالى، وإخلاصه في

---

(١) سورة القلم : (١٠ إلى ١٤).

طلب المغفرة منه سبحانه. فالإقلاع عن الذنب هو بداية الطريق إلى الاستغفار والعبودية لله، ثم يتحرك العبد المذنب نحو إصلاح ما فسد، وتدارك ما فات من الخيرات، ثم محاولة اللحاق بمن كان يسير معه على طاعة الله، فليس من تعثرت قدماه، وتوقفت عن السير خطاه مثل من واصل السير على طريق الطاعة لله تعالى، فالفرق بينهما شاسع، والبون واسع، والعاقل يدرك ذلك ويعرفه، ويعرف أن المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وأخراه، قال ابن قيم الجوزية – رحمه الله – : ((وكثير من الناس من يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: ((أستغفر الله)) زال الذنب وراح هذا بهذا، وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل، وأفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي r أنه قال: (**... ومن قال سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**)(١). وقال لي آخر: قد صح عن النبي r أنه قال: (**أذنب عبد ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب**) الحديث))(٢). ثم يعلق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٣٢٩٣، ٦٤٠٣، ٦٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٩١) واللفظ له.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري برقم (٧٥٠٧) ومسلم في صحيحه برقم (٢٧٥٨) واللفظ له.

ابن قيم الجوزية على هذا النوع من الناس قائلاً: ((وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والا ماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب))(١).

(١) انظر: الجواب الكافي ص (٢٠).

حديث القرآن والسنة عن الاستغفار

جاء حديث القرآن الكريم عن الاستغفار حديثاً شاملاً وعجيباً في نفس الوقت، حديثاً يبني ويربي: يقرب ولا يباعد، يرغب ولا ينفِّر، يبشِّر ولا ينفِّر، يدعو إلى المغفرة ولا يقنِّط منها، وهو حديث يدعو المؤمنين إلى الاستغفار وطلب المغفرة من الرب الكريم الغفار، تارة ببيان شأن وأهمية الاستغفار وأثره في الحياة سعادة، واستقراراً وهناءً، وقوةً، وجمالاً، وتارة ببيان صفات المستغفرين وهي صفات جليلة جميلة، وذلك في مثل قوله تعالى: ¼

ûïÏ‰Ö Ìàó ÏŒ `Ï Žó,Î /ãâ‰Ñ @è *

ãgRF$ $gÏtB `Ï “Ìõ? M»Y_ óÎÎ‘ ‰ZÏã (ö)?$

«!$šÆ Ï Òc ºqÊí r ×gÜÏ Ó°rr $gŠÏ ûï$Ï»z

$YB#ä $YRÎ$Y/‘ bqãàf šú ï‰Ç$ÇÎÈ Š$7ïŽÎ Ž•Å/ª!$

ûïÍÉÁ9$ ÇÏÈ í$Z9$ >#‹ã $ZÏr $Y/qÇ $Z9 ÏÏø$Ï

وقوله عز وجل: ﴿ * ﴾ [١]

وقوله عز [١] » û,#Ü»è@Sêô_& Nèr $kŽu šú ï$#» z ãk¥{$

من قائل: ¼ Nàèh Jãïø) {pçqê Sê ta/‘ {ráyóF"$Èr&

@ôù “Ë @ä ïNs±r ‘kv¡B @_& #<) $Z¡m $è»GB

Ža. Ðöƒ >#‹ã ïaæ ï$%{& þÛù {q?bÎr ¼@#ôù

وقوله جل وعلا: ¼ šc %. ¼çR) ta/‘ {ráyóF"$ÀMtàù [٢] »

/ä‰ðãr ÇÈ #Y‘@Ë /aæ ä$J¡9$#@Aeã ÇÈ #Y$ï î

[٣] » #»k¥& ta9@èd r ¸M»Z_ ta9@èd r ûüÏ/r A°qø'Î

.

فقد اشتملت هذه النصوص الكريمة على بيان شأن وأثر الاستغفار في حياة أصحابه، كما اشتملت على بيان بعض صفات المستغفرين. وذلك كله بيان لمنهج القرآن الكريم في التربية والتوجيه، ليعرف المسلم مكانة الاستغفار

---

(١) سورة آل عمران : (١٣٣ إلى ١٣٦).
(٢) سورة هود : (٣).
(٣) سورة نوح : (١٠ إلى١٢).

عند الله تعالى، وأثره في الحياة الدنيا والآخرة، ففي النص الكريم الأول دل القرآن الكريم على أن الاستغفار سبيل الحياة الآمنة المطمئنة التي يأمن فيها المسلم على دينه وعرضه وماله، ويحس فيها بكيانه الإنساني، ويحس من حوله بحركة الحياة وهي تسير في اتجاهها الصحيح، فأهل الفضل يحفظ لهم فضلهم، فلا يمكِّن الله أحداً من التجاسر على فضلهم أو انتقاصه. وكل من حقق هدفاً شريفاً بوسيلة شريفة فحقه محفوظ، وأهل الشر يكبت شرهم في رؤوسهم فلا يمكِّنهم الله تعالى من رقاب الأمة التي تجأر إلى ربها ليل نار بالاستغفار، وتبكي بين يديه على ذنوبها وخطاياها، وهي تستشعر خطر تلك الذنوب على الحياة، وتوقن بأنها سبب المحق والهلاك.

وتستشعر في ذات الوقت بطش القهار المتكبر الجبار، وأخْذَهُ الأليم الشديد لمن عصاه وبارزه بالمعاصي وأصر عليها ولم يستغفر من ذلك، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ الأمم الماضية، قال الله تعالى: ¼

$ßÏ¹ %n ïøãà $ZŧÙ™Ö& ôB NG§¥Ùù ¾ïîÏ‹Ï $RÕ{& îxàù

ïÎ $Yøï¡z ïÆB OG§¥Br èsšÁ9$ç?‹{& ôB OG§¥Br

ª!$š c %Ÿ2 $Br $Y¾•ø& ôB OG§¥Br š ß öF{$

» šc qßÎâƒ óßÌ ÿ¡ ÿ¤R& ÿ(þ¤R%Ÿ2 `Å»9r óßJÎâ‹Ï.(١)

إن القرآن الكريم يوجه أنظار المسلمين إلى أهمية الاستغفار وشأنه في حياتهم. وإذا كان الناس يتوقون إلى الحياة الآمنة المستقرة، بالقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، والمعاني الكريمة، فإن القرآن الكريم يبين بجلاء أن تلك الحياة لا تكون إلا حيث تكون طاعة الخلق لخالقهم عبودية، ومحبة، وإنابة، واحتكاماً.

والنص الكريم الذي نحن بصدد الحديث عنه في الآية الثالثة من سورة هود يضع المجتمع المسلم أمام مسئوليته، ويبين بجلاء أن استقرار الحياة وهناءها إنما يكون بالإقبال على الله تعالى؛ باستغفاره، والتوبة إليه، ويدل على شأن الاستغفار، والتوبة، وفضلهما، وأثرهما في استقرار الحياة وسعادتها، قال الخازن في تفسيره: ((يعني أنكم إذا فعلتم ما أُمرتم به من الاستغفار والتوبة، وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير))(٢).

وهذه الآية فيما تدل عليه تشبه الآية الكريمة من سورة النحل وهي قوله

---

(١) سورة العنكبوت : (٤٠).
(٢) تفسير الخازن (٤٧١/٢).

تعالى: ÖBsa qèr Ø\Rér& ØÖ2 Œ `B $[s î» ¹ @ÜÜã ôB ¼ $B Çj ôn'Î Nè•ô_& ÓGYfÌÕ Z9r ÞÖ6ÛÜ Ø4<m ¼çZ•ÍsÃù «(١) bqèJèf (qÇ$Ü2 وقد أورد الخازن في تفسيره سؤالاً من المهم إيراده هنا، وهو: أنه جاء في الصحيح عن النبي r : ((**الدنيا سجن المؤمن**))(٢) وجاء عنه كذلك قوله عليه الصلاة والسلام حين سئل: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: (**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**).. الحديث(٣)، وقد يضيق على المسلم في بعض حياته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله، فكيف الجمع بين هذا، وبين قوله سبحانه وتعالى: $è»GB NÃèÜJã¼

---

(١) سورة النحل : (٩٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، حديث رقم (٢٩٥٦) بسنده إلى أبي هريرة بلفظ: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/١)، والترمذي في الزهد، حديث (٢٣٩٨)، والحاكم (٤٠/١، ٤١)، بأسانيدهم عن سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل... إلخ. وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

m ¡ Z $ Î #< & _ @ B ¥ Kv ¡ ‘ » [١] وأجاب الخازن على ذلك قائلاً:

((أما قوله r : ((**الدنيا سجن المؤمن**)) فهو بالنسبة إلى ما أعده الله له في الآخرة من الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، فإنه في سجن الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له، وأما كون الدنيا جنة الكافر، فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع، فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة، وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات، فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات، فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة؛ لأنه راضٍ عن الله في جميع أحواله))[٢].

والحياة الطيبة ليست فقط هي البسط في الرزق وقوة اليد، وكثرة الولد، وإن كان ذلك جزءاً منها، ولكن الحياة الطيبة هي بالإضافة إلى ذلك: حياة القلب بنور الإيمان بالله تعالى ومعرفته، فتنشأ عن هذه الحياة حيوات أخرى، جليلة شريفة، كريمة مثل حياة العزة، وحياة الهمة، وحياة الكرامة، وحياة الأنس بالله، ومعيته جل جلاله، وحياة الافتقار إليه بالاستغناء عما سواه، وحياة الذكر له تعالى، وحياة الطاعة له سبحانه، وحياة الحب له عز وجل

---

(١) سورة هود : (٣).
(٢) تفسير الخازن (٤٧١/٢).

ولرسوله r ، وحياة الأخلاق الكريمة الرفيعة، قال الله جل جلاله: ¼ &rB`

ÓÅ ðƒ #Yqç ¼ç9 $Yè_r ç»Y•šôn'ù $GBb¼.

$kB 8íƒ2ç §ø Ï»Jèè9$ 'î ¼æWB `J. Ä $Y9$

(qç¼. $B ûïÙ»3ù `îã š• ï0‹.

(١) «šc qèJèƒ وهذه الحياة لا تنافي السعة في الرزق الحلال، بل تتعانق معها في جمال وتكامل وبهاء، فيتألقان على طريق القوة، والنماء، والفاعلية المباركة، والأثر الطيب، والقدوة الصالحة الشريفة التي تحبها كل نفس شريفة، فما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا، ونعم المال الصالح في يد الرجل الصالح.

وإذا كان الاستغفار من أسباب الحياة الكريمة الطيبة، فهو بذلك صلاح وإصلاح، صلاح لنفس المستغفر، وإصلاح لما حوله، وكلا الأمرين مكمل للآخر، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه الكريم بعض صفات ((المستغفرين)) بالجمع، وجاءت فيه صيغ الجمع أكثر من صيغ الإفراد، دليلاً على أنه مطلوب من الأمة أن تستغفر ربها، وتدخل في طريق العودة إليه جل جلاله،

---

(١) سورة الأنعام : (١٢٢).

فلا يكفي الاستغفار الفردي لكي تظفر الأمة بما وعدت به من الخير على الاستغفار، فالاستغفار الفردي تعود ثمرته على صاحبه غالباً فلا بد للأمة كلها أن تستشعر مسئوليتها تجاه ذلك، قال الله تعالى: ¼ $Br . %šc $šÏ! aèÈÉ/Ïgø9$ ولم يقل سبحانه: وفيهم من يستغفر، وقال سبحانه: (١) »

¼ $Br 2Ÿb% ‘ïÏ šïÏ• ÷ès? šÏ• ÷ès? 3“t•ø:$ ولم يقل سبحانه: وفيهم من يصلح، وفرقٌ بين (٢) » šc qßsÎ=øÏ9$

الصلاح، والإصلاح، فالصلاح عمل في نفس الفرد ومردوده عائد إليه، أما الإصلاح فهو يمثل دوره الإيجابي في مجتمعه وأمته. والعجيب أن القرآن الكريم لم يذكر لفظ ((المستغفرين)) وصفاً مفرداً لحاله، بل جعله قرين أوصاف أخرى جليلة جميلة شريفة، ومن ذلك قوله تعالى: ¼ *

---

(١) سورة الأنفال : (٣٣).
(٢) سورة هود : (١١٧).

$gÆÊéã þY_r Nà6 ÎS `Ï ç•ÿóB 4<Î ¢þãí$™r

ûïÝ%GS ÇÌÌÈ ûüÉGtÜ NŒÃé ÞÚ öF¢S NºqJ¡ 9$

áœóGS ûüÜÏà» 6 GS ä¢Ÿ9$ ä¢Ÿ9$ 'Î bqàÝZã

ÇÌÍÈ šú üÏÅ¬s3GS<tã ª! S Ä $Y9$Çã ûüÏ$èGS

¢rã.Œ Nãeÿ¥R& ¢þ3=ß ¬& þ±Å»ù ¢qèèù #ŒÎ šú ïÝ%GS

ª! $žvÎ šU qÇ%!$ãÝó/ `Br NÎÎqÇã¥Ï ¢rãÝóGÕ™$ù ©$

7Í»9r¢ÇÌÎÈ šc qÃ=ê/ Nèr ¢qèèù $B 4?ã ¢rŽÇãN9r

$g¢B `Ï “ìgB ¥M»Y_r NÎÎS `Ï œ•ÿóB Nèä¢“_

ففي [1]» û,¢ÜèGSãÔ_& Nè¢r $kŽÜ šú ï$Î»z ãk¥¢F$

هذه الآيات الكريمة أجرى الله تعالى (على المتقين صفات ثناء وتنويه هي ليست جماع التقوى، ولكن اجتماعها في محل واحد مؤذن بأن ذلك المحل

(١) سورة آل عمران : (١٣٣ إلى ١٣٦).

الموصوف بها قد استكمل ما به التقوى، وتلك هي مقاومة الشح المطاع والهوى المتبع)(١) وكبح جماح النفس عن الغضب، والعفو عن المسيء، وذِكر الله تعالى، والتوبة إليه بالاستغفار، والكف عن متابعة الخطيئة حين فعلها، وهي صفات نبيلة تدل على قوة المتصفين بها نفسياً وعلو همتهم، ومدى سيطرتهم على غرائزهم، وتدل على أن التقوى هي الطريق لكل خير، والسبيل لكل رشد، وهي رأس الأمر كله، وهي ثمرة الإيمان بالله، وبرسوله r .

وأول صفات أولئك المتقين ((الإنفاق)) في السراء والضراء، أي أن هؤلاء المتقين ينفقون أموالهم في سبيل الله على كل حالٍ، وهذا أمر له دلالته في بيان قوة إيما ـم، وعلو همتهم، وفهمهم الرائع الجميل لوظيفتهم في المال الذي وهبهم الله إياه. والإنفاق في الأحوال السارة والتي تكون بالخير دارة، أمر قد يطيقه بعض أهل المال الباذلون له طلباً للثواب من الله تعالى، ولكن الإنفاق في حال الضراء هو الذي ينبغي الوقوف عنده تأملاً، وتَفَهُّماً، واعتباراً، خاصة إذا كانت الشهادة بالإنفاق لهؤلاء المتقين في تلك الحال صادرة عن الله تعالى. إن الأيام وأحوال الناس أرتنا أن الناس في زمن الخير والسراء يظهرون بمظهر الكريم، الشجاع، والوفي، ولكنهم في زمن الشدة والضراء ليسوا كذلك، فكثير منهم وكثير جداً، يتغير عما كان عليه في زمن

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٠/٤).

الخير والسراء، خاصة في ميدان البذل، والإنفاق، والوفاء، فحب الناس للمال معروف مألوف في طباعهم، قال تعالى: ﴿ A$J0$šc q7tÊr ¼ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ 8qæ39 ¾ïî•ï `» ¡ NYbî ¼ ﴾[١] ﴿ Îï¢ø$ Ée=s ï ¼çRÎr ÇÐÈ ‰«í¶9 7ï‰Œ 4?ã ¼çRÎr ÇÏÈ ﴾[٢] والخير في الآية الكريمة: المال. والله تعالى بيَّن في كتابه الكريم أنه لم يسألنا أموالنا، بل سألنا الإيمان به وتوحيده سبحانه، ولو سألنا أموالنا، وألْحَفَ في ذلك لظهر بخلنا، ولخرجت الضغائن الدفينة التي تختفي وراء حب المال. قال تعالى: ﴿ bî ÇÏÈ ¼ã39qB& ¼ãtùó„ ¼r ¼ ﴾[٣].

وتبرز نفوس المؤمنين المتقين من بين النفوس كلها نفوساً قوية عالية الهمة قد أوتيت تقواها، فانتصرت على شحها وبخلها، فبرز أصحابها رجالاً كباراً

---

(١) سورة الفجر : (٢٠).
(٢) سورة العاديات : (٦ إلى ٨).
(٣) سورة محمد : (٣٦-٣٧).

يحلّقون في علياء الكرم، والبذل، والإنفاق لا في حال السراء فقط ولكنهم كذلك في حال الضراء، وذلك قمة الكرم وغاية الانتصار على البخل والشح. والله تعالى أثنى على هؤلاء المتقين بإنفاقهم في حالي السراء والضراء، وجعل هذه **الصفة هي الأولى** فيما وصفهم به سبحانه من صفات، وكان الجمع بين إنفاقهم في الحالين دليلاً على حبهم الخير والنفع لغيرهم كما يقول صاحب تفسير التحرير والتنوير – رحمه الله –: (لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خُلقاً لا يحجبهم عنه حاجب ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة)(١).

والصفة الثانية لهؤلاء المتقين أ ـم الكاظمون الغيظ، وكظم الغيظ: إمساكه، وإخفاؤه حتى لا يظهر، وذلك دليل على قوة العزيمة، ورسوخها في النفس، وقهر الإرادة للشهوة، وهو من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة، وذلك أن القوة الغضبية قوة مؤثرة على النفس، فترغب النفس وتشتهي إظهار آثار الغضب بالانتقام ممن كان سبباً في الغضب، خاصة إذا

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩١/٤).

تهيأت أسباب الانتقام(١)، وفي ذلك بيان واصف كاشف لما يتحلى به هؤلاء المتقون من سجايا كريمةٍ وأخلاق حميدةٍ راضُوا أنفسهم عليها من خلال رحلةٍ غير قصيرةٍ على طريق التقوى لله تعالى، والعبودية لجلاله وعظمته، وإسلام الوجه له سبحانه وتعالى.

والصفة الثالثة: عفوهم عن الناس حين يسيئون إليهم، وهذه الصفة متصلة بصفة كظم الغيظ فهي مكملة لها، فهم لا يكظمون غيظهم فقط، ولكنهم يتبعون ذلك بالعفو عن المسيء، فقد يكظم أحد من الناس غيظه، ولكن الرغبة في الانتقام بالحق من المسيء قد تظل قائمةً في النفس، فبيَّن القرآن الكريم أن صفة العفو عن الناس هي قرينة صفة كظم الغيظ في هؤلاء المتقين، فهما صفتان متأصلتان فيهم مستمرتان معهم، كأ ما سجيتان فيهم، واجتماع صفات: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس دليل على كمال الإحسان في النفس، وانفعال الشخصية بهذا الإحسان، ولعل ذلك أشعر به قول الحق تبارك وتعالى: ¼ $ ¡ ª ät ⊂ « ŠÚ üÏZÅ¡ós3ø9$ لأنه دالٌ على تقدير أ م بهذه الصفات محسنون،

(١) انظر: نفس المصدر.

والله يحب المحسنين(١).

والمتقون الذين هذه بعض صفاتهم ليسوا أنبياء معصومين، بل هم بشر فيهم نقائص البشر، ولكنهم لا يتركون هذه النقائص تسيطر عليهم فتدمر حياتهم، بل إذا وقعت منهم تداركوها بالعلاج، وذلك هو بيان القرآن العظيم بذكر عطف صفات هؤلاء المتقين بأسلوب سهلٍ، واضح، صريح، فهؤلاء المتقون مع ما هم عليه من تلك الصفات الجليلة الجميلة التي تدل على قوة نفوسهم، وعزمهم، وعلو همتهم إلا أ ـم إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم لم يتمادوا في ذلك، بل إ ـم يتداركون أنفسهم بكفها عن الاستمرار في فعل الفاحشة، أو ظلم النفس، وذلك بذكر الله تعالى، وذكر ما يجب له سبحانه على عباده، وما أوصاهم به، وذكر عظمته وجبروته، وبطشه، وذكر أنه هو التواب، الرحيم، ومن شأن هذا الذكر أن ينتج عنه الندم، وطلب المغفرة من الله تعالى بالاستغفار من ذلك، والتوبة إليه سبحانه. وهذه الآية الكريمة معلم من معالم الهدي القرآني العظيم في التربية والتوجيه والإصلاح والبناء، وهي تبين أركان التوبة من الذنب، سواء كان فاحشة أو ظلماً للنفس، فالاستغفار طلب الصفح عن المؤاخذة لا يصدر إلا عن الندم، ونية الإقلاع عن الذنب، وعدم العودة إليه، فهو بذلك توبة، وهو قول وعمل وحركة للصلاح

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩١/٤).

والإصلاح، وقد عُد الاستغفار من الذنب في هذه الآية مرتبةً من مراتب التقوى، فقول الله تعالى: ¼ Ntgƒqèàï ÷rèõyøGÏ%$# « يشير إلى الندم وهو ركن التوبة الأول، وقوله سبحانه: ¼ $B 4?ã ÷rŽÅÇçãNä3r « بيان لركن التوبة الثاني، وقوله جل جلاله: ¼ Nèdr ÷qèù « بيان لركن التوبة الثالث.

والملاحظ أن هذه الآيات بينت بعض صفات هؤلاء المتقين وهي كلها تدخل في بيان القوة النفسية، والإرادية لديهم، فهم المؤمنون المتقون، فكظم الغيظ، والعفو عن الناس، وذكر الله تعالى والاستغفار من الذنب عند ارتكابه، والكف عن التمادي فيه، كلها صفات تدل على قوة الإرادة، والسيطرة على غرائز النفس، ومن وُفِّق إلى هذه الصفات فقد وُفِّق إلى الإحسان، وهو المرتبة العالية المتقدمة في الدين، ولكن ما هو جدير بالتأمل في ترتيب هذه الصفات أ ـا صُدِّرَتْ بصفة الإنفاق في السراء والضراء، وهذا الأمر له دلالاته وأبعاده، وآثاره القريبة، والبعيدة المتصلة بالإنفاق، وشأنه، وخطره، وأثره في حياة المسلمين. إن المال هو عصب الحياة، وهو سبب من الأسباب المادية في القوة والتمكين في الحياة في جانبها المادي.

وقد بيَّن القرآن الكريم في آيات كثيرة شأن اجتماع المال والرجال، وأن الله تعالى جعلهما من عوامل القوة والتمكين، ومن تلك الآيات آية الاستغفار في سورة نوح عليه السلام.

والآيات التي نحن بصدد الحديث عنها تبين بجلاء أن مهمة المسلم في المال هي إنفاقه فيما يرضي الله تبارك وتعالى، وذلك معلمٌ كريمٌ قويمٌ من معالم المنهج الإسلامي الرشيد السديد الذي يعكس نظرة الإسلام إلى المال، والتي تخالف نظرة المذاهب المادية والفلسفات المعاصرة القاصرة، فالمال في ميزان الإسلام ليس هدفاً في حد ذاته، بل هو وسيلة يتوصل بها إلى غايات مطلوبة وهي غايات كريمة، وطريق هذه الغايات هو الإنفاق في جوانبه الكثيرة المتعددة والتي شرعها الله في دين الإسلام العظيم.

وقد عنى الإسلام بموضوع إنفاق المال عنايةً بالغة تكشف عنها تلك الآيات القرآنية الكثيرة التي تناولت الموضوع تناولاً كشف عن دقائقه وأصوله، وفروعه، وكثير من متعلقاته. والرجوع إلى كتاب الله تعالى، والوقوف على الآيات الكريمة في موضوع الإنفاق دراسةً وتدبراً وفهماً مما يساعد في الكشف عن المنهج القرآني الفريد المتميز فيما يهدي إليه من أهداف قريبةٍ وبعيدةٍ، عامة وخاصةٍ، تعود على المنفقين في سبيل الله بالخير في ظاهرهم، وباطنهم، وفي عاجلهم، وآجلهم، وفي دينهم، ودنياهم، وأخراهم. والمال عزيز عند الناس، فغير المؤمنين منهم تراهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل

من صلة رحمٍ مع والدٍ أو والدةٍ، أو أخٍ، أو أختٍ، أو عمٍ، أو عمةٍ، أو خالٍ، أو خالةٍ، أو رحمٍ قريب أو بعيدٍ من أجل مالٍ، سيتركونه في النهاية لمن يسعد به، بعد أن شقي هؤلاء من أجله. والإسلام العظيم دين الله الواضح القويم راعى طبيعة البشر، وما فُطِروا عليه من حبٍ للمال، وشحٍ وبخلٍ، فلم يدع الناس إلى الإنفاق من بابٍ واحدٍ فقط، ولكنه دعاهم من خلال أبواب متعددة تعكس نظرة الإسلام الراشدة إلى الإنسان وتقدِّرُ أبعاد فطرته، كما تعكس رحمة الله تعالى بهذا الإنسان وترفقه به. ويمكن بيان ذلك في إيجازٍ شديدٍ من خلال بعض الآيات التي تعكس بيان القرآن الكريم في الموضوع بصفةٍ عامةٍ على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: جاء التوجيه العام بالإنفاق في آيات كثيرةٍ، نذكر على سبيل المثال منها قول الله تعالى: ﴿ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ ﴾[١]

---

(١) سورة النساء : (٣٩).

[illegible]

[illegible] (١).

ثانياً: لم تأت صفة الإنفاق في سبيل الله للمؤمنين والمتقين منفردةً، بل جاءت ضميمة لصفات أخرى جليلة جميلة، فانتظمت معها، فكانت كأ ا حبات لؤلؤ وضيء في عقدٍ لؤلؤي جميل، يعجب الناظر إليه، ويُسَرُّ لجماله ويرتاح بالتأمل في حباته الجميلة، وذلك كثير في القرآن الكريم، ومنه على سبيل المثال: [illegible]

(١) سورة إبراهيم : (٣١).

.(١)»

ثالثاً: وعد الله المتقين بأن يخلف عليهم فيما أنفقوا، وذلك يشمل وعدهم بالسعة، والرحمة، والمغفرة، قال الله تعالى: ¼ `Ï OçFôJy‚ø9$# $Br

.(٢)» šú üÏ%©!$#ur ¼çnãÅÁt/ qè=ÏHxq ÏM»oYÏB÷sßJø9$#ur «

رابعاً: نوَّع القرآن الكريم الإنفاق تيسيراً على الناس وترغيباً لهم، فكانت الزكاة المفروضة، وكانت صدقة التطوع، وغيرهما، كما نوَّع المحتاجين للنفقة، فلم يجعلهم نوعاً واحداً وذلك في مثل قوله تعالى: ¼ $Br ÏM»oYÏB÷sßJø9$# `Ï NèdurßÎ=tã ÏM»oYÏB÷sßJø9$# `Ï cÎ*sù ©!$# ¨@ä.

وفي مثل قوله سبحانه: ¼ «(٣) ¼çnãÅÁt/ ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ÏmÎ/ ßìÎ7¨?$$sù ©!$# ¨@ä.

.(٤)» ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ÏmÎ/ ßìÎ7¨?$$sù ©!$# ¨@ä.

---

(١) سورة الأنفال : (٢ إلى ٤).
(٢) سورة سبأ : (٣٩).
(٣) سورة البقرة : (٢٧٠).
(٤) سورة المعارج : (٢٤-٢٥).

خامساً: جعل الله الإنفاق قرين الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه: ¼

ûüÏ=ÐGó B /a=è_ $ÆB (qàÏR&r ¾ÍqÏ‘r «! $# (qãB#ä

كما جعله قرين إقامة الصلاة، وذلك في قوله الله تعالى: (١) » ïnšÏù

bqàÏZãŠG»Z‘ $ÆBr o4=Á9$šc qßJÉãšú ïÏ%©¼

ويلاحظ في آيات الإنفاق كلها خصوص الإنفاق من بعض المال. (٢) »

سادساً: وبالمقابل فقد ورد الوعيد الشديد بالعذاب الأليم لمن أخفق في ميداني الإيمان والإنفاق، وفي ميداني إقامة الصلاة والإنفاق.

قال تعالى: ¼ ÇÏÈ qq• ¹ LìÅgø$ÔÊ ÇÏÈ qq•áù qräê

¼çR) ÇÏÈ qqàÆ™$ù ‰à#‘Ï bqãΖ™ $gãöŒ 7#Å¡tÅ ’îÔÊ

Ç$èÛ 4?ã •Ù tÏ Ïwr ÇÌÈ É$ÈàÆ$! $# ßÏsãÏw b%.

---

(١) سورة الحديد : (٧).

(٢) سورة الأنفال : (٣).

وقال جل وعلا: «(١)، Ï Ì Ë Ê É È Ç Æ Å Ä Ã Â Á À ¿ ¾ ½ ¼ » الآية.

«(٢) ß Þ Ý Ü Û Ú Ù Ø × Ö Õ Ô Ó Ò Ñ Ð Ï Î Í Ì Ë Ê É È Ç Æ Å Ä Ã Â Á À ¿ ¾ ½ ¼ » الآية.

إن موضوع الإنفاق في سبيل الله موضوع دقيق، وذو أثرٍ وخطرٍ في حياة المسلمين. والمال في الإسلام مال ينفق منه في سبيل الله، ويخلف على صاحبه بالخيرات، وليس خافياً أن الدعوة إلى الإنفاق في المال هي دعوة لتحريك هذا المال والتجارة فيه، واستثماره، وتنميته حتى لا يأكله الإنفاق بأنواعه، والمال المكنوز مذموم صاحبه، ومتوعد من الله تعالى بالعذاب الأليم. والإسلام العظيم يريد أن تكون أمته قوية في إيما ا، قوية في وجودها المادي، ويأتي الإنفاق باباً واسعاً من أبواب القوة المادية، ولعل ما تقدم وسواه يدل على أهمية تقديم صفة ((الإنفاق)) عند هؤلاء المتقين في هذه الآيات الكريمة التي سيتواصل الحديث عنها.

إن الآيات التي تقدم ذكرها من سورة آل عمران تدلنا على بعض معا لم المنهج القرآني، الفريد، الرشيد في التوجيه، والتربية، والإصلاح، والبناء، والتي

---

(١) سورة الحاقة : (٣٠ إلى ٣٤).
(٢) سورة المدثر: (٤٢ إلى ٤٤).

يأتي الاستغفار فيها أحد هذه المعالم.

إن الذي يذكر الله تعالى، ويتذكر عظمته، وجبروته، وقدرته، وعقابه، وأليم أخذه، وشديد عذابه، وقوة قهره، ويذكر وعده، ووعيده، ورحمته، وستره، وأنه القادر على كل شيء، والمطلع على كل شيء، إن الذي يذكر الله تعالى عند مقارفة الذنب هو المؤمن التقي، المتربي على طريق الاستقامة لله سبحانه، فتجيش نفسه بالخوف، والحياء منه سبحانه، والرهبة لجلاله وسلطانه، فيتحرك كيانه كله مقشعراً من هول وفظاعة ما فعل، فيلين قلبه، وترق نفسه لخالقها وسيدها، وينطلق لسانه في انكسار بيِّنٍ، يطلب المغفرة من الله الرحيم، الكريم، الغفور، الودود؛ لأنه يعلم أنه لا يغفر ذنبه إلا الله تعالى.

والقرآن الكريم يوجه أنظار الأمة إلى أهمية التخلق بهذه الصفات الكريمة، والتي وردت وصفاً للمتقين، ولكن الأسلوب القرآني الكريم في موضوع الاستغفار اختلف في بيان صفة أهله عن صفاتهم الثلاث السابقة، ففي بيان صفة الاستغفار مهد له ببعض مُسَبِّبَاتِه، وموجباته، والتي لا ينبغي أن تكون بحالٍ حاجزاً بين العبد المذنب، وبين طلب المغفرة، والصفح من ربه الرحيم، الكريم، مهما كثرت ذنوب العبد وخطاياه، ورحمة الله تعالى ومغفرته أوسع من ذنوب العباد، والله تعالى يغفر الذنوب جميعاً إلا ذنب الشرك إذا

لم يُتَبْ منه، قال تعالى: ¼ ¾ïÎ 8ŽÎçb& ëÿøƒ ŵ ©$b) وقد دلت آية الاستغفار[١] على أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين.

روى الإمام أحمد في مسنده قول النبي r: ((**قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني**))[٢]، وهذا دليل واضحٌ، وبرهانٌ ساطع، على فائدة الاستغفار للمسلم المذنب، وأثره في حياته، وعلى ما يمثله من خسارة، ودمار للشيطان، ومخططاته، فالشيطان الرجيم عليه لعنة الله هو عدو المسلم المبين. وعداوته قائمة على إبعاد المسلم عن ربه، والسير به في طريق الهلاك والخسران.

ويأتي الاستغفار عطية من الله تعالى لعبده المسلم المذنب، وسياجاً واقياً يحتمي به من غواية الشيطان وإضلاله، وصخرة صلبة تتحطم عليها معاولُه، وأدواته في الإغواء، والشر، فيهيئ الاستغفار الفرصة للمسلم المذنب في المراجعة، والندم – والندم توبة –، والإقلاع عن الذنب، ثم السير في طريق الصلاح، والإصلاح، فالاستغفار مظهر من مظاهر العبودية لله تعالى، وذلك أن قول المسلم: ((أستغفر الله)) معناه أطلب المغفرة، ممن تطلب منه، وهو

---

(١) سورة النساء : (٤٨، ١١٦).
(٢) مسند الإمام أحمد (٢٩/٣، ٤١) .

الله جلاله، فلا تطلب المغفرة من ملَك مقرب، أو نبي مرسل، أو ولي صالح، أو أحد من خلق الله تعالى، مهما كانت منزلته عند الله، وعند خلقه، وحتى على فرض أ ا طلبت من أحدٍ سوى الله تعالى فهو غير قادر عليها؛ لأ ا ليست مقدورة له، وهي ليست من صفاته، فالله تعالى وحده هو ¼ ÑùÏ$9¤ÀR É «(١) وهي آية وحيدة في كلام الله تعالى، فلا يوصف أحد من الخلق بأنه غافر الذنب. فالله تعالى هو الذي يغفر ذنوب عباده، ويبدلها لهم حسنات، ويتوب عليهم، فمن الذي يقدر على ذلك من الخلق؟ إنه لا يغفر الذنوب أحدٌ إلا الله تعالى، وفي ذلك ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه، وتنشيط للمذنبين كي يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل لله تبارك وتعالى. فإحساس المسلم المذنب بأن له رباً كريماً يغفر الذنب، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، فلا يستغفر إلا إيَّاه، ولا تطلب المغفرة إلا منه، فالاستغفار دليل على إيمان المسلم بربه سبحانه، ودليل على إقراره بربوبية الله تعالى وإلهيته، ودليل على إقراره بعبوديته له جل جلاله، فالمعاني

(١) سورة غافر : (٣).

التي يشتمل عليها الاستغفار معانٍ شريفة جليلة، ولها دلالاتها البعيدة والقريبة التي تدل على مدى تلك الصلة الشريفة العجيبة بين العبد وربه، وهي صلة لا يسعها رحب الأرض الواسع وصفاً لجلالها وشرفها، وجمالها، فهي صلة المخلوق بخالقه، وموجده، وموجد حياته كلها، وما يتصل بها، من تكوين وتصوير وحكمة، وجمال في الخلق، ودقة في التصوير، وعظمة في الإيجاد، وعلم في التصريف، ولطف في التقدير، وهي صلة بين المرزوق العاجز، وبين سيده، وخالقه الرزاق القادر، وهي صلة بين العبد المقهور وبين سيده القاهر، إلى آخر ما يمكن أن يذكر في هذا المقام، والصلات مبناها على معرفة الصفات، فإذا علم العبد أنه محتاج وفقير إلى ربه في كل شيء، وأن ربه بيده ملكوت كل شيء، وأن ما يحتاجه في دنياه وأخراه، إنما هو بيد الله تعالى وحده، لا بيد غيره، إذا علم العبد ذلك من خلال معرفته بصفاته، ومعرفته بصفات ربه، وخالقه أقبل على ربه، وأناب إليه، وأحسن الصلة، ووثقها به سبحانه.

ويجيء الاستغفار من العبد دليلاً على معرفته بعجزه، وفقره، وحاجته لمغفرة ربه الواسعة، ورحمته العظيمة، ودليلاً على إدراك العبد لأهمية الاستغفار، وشأنه، وأثره، فهو سفينة النجاة من طوفان الذنوب والسيئات.

وقد جاءت الآية الكريمة رقم مائة، وخمسٍ، وثلاثين من سورة (آل عمران) – والتي لا زلنا بصدد الحديث عنها – تحمل سمات المنهج

الإسلامي الرشيد، السديد في العلاج، والإصلاح، وهو منهج يتسم بالسهولة واليسر، والوضوح، والرحمة للفرد المسلم، وذلك دليل على شأن المسلم، ومكانته عند الله تعالى. إن القرآن الكريم يبين أن الناس غير معصومين من الذنوب(١) حتى وهم يتحلون بصفات نبيلةٍ جليلةٍ، تدل على علو همتهم، وكبر نفوسهم، وأن الاستغفار هو الواحة الهادئة التي يأوي إلى ظلالها المذنبون فيجدون في جنباتها الأمل في مغفرة الله تعالى، ورحمته. هكذا يبين القرآن الكريم موقف المسلم عندما يقارف الذنب بكل وضوحٍ ويسر، في عبارة حانيةٍ، وأسلوبٍ يملأ النفوس بالأمل، أسلوب يبشر ولا ينفر، يقرب ولا يباعد، يؤمل ولا يقنط، يجمع ولا يفرق، يبني ولا يهدم، وذلك سمة من سمات الهدي الإلهي، العظيم، في كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيمٍ حميد، وهو هدي كله خير، ورحمة، وسداد، ورشاد، هدي: هدى ويهدي للتي هي أقوم، هدي: يعالج، ويصلح أحوال المسلم، حتى في لحظات اقتراف الذنوب، والسيئات فلا يترك هذا الهدي الرباني العظيم المسلمَ يتخبط في أوحال الذنوب، ولكنه يفتح الأمل أمامه ليسرع السير على طريق الاستغفار والإنابة

(١) وهذا في غير الأنبياء عليهم السلام، فهم معصومون عن كبائر الذنوب باتفاق، ومن صغائرها على قول من يرى ذلك.

إلى ربِّه الرحيم، الكريم، الذي لا يغفر الذنوب أحد سواه، والذي لا يستر العيوب إلا هو جل وعزَّ، وتبارك من ربٍّ رحيمٍ، كريمٍ، عفوٍ، غفورٍ.

فالآية نزلت تدل على العلاج في أسلوب سهل واضح، لا تعقيد فيه ولا التواء ولا شطط، وذلك كله من خلال منهج يدل العباد على رحمة ربهم الرحيم ويرغبهم فيما عنده سبحانه من سعة المغفرة والفضل والرحمة والعطاء.

جاء في مسند أحمد عن علي رضي الله عنه قال: (كنت إذا سمعت من رسول الله r شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر – وصدق أبو بكر – قال: قال رسول الله r : **(ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يتوضأ، فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له)**[١] وقرأ هاتين الآيتين: Œê ¼çiÿøR ÙÎêƒ r& #ätƒ @Jè‹ƒ `Br ¼ ، [٢]» $VŠïms§ #Yqàî ©$ ‰Éƒ ©$ ìÏÿóÇó„

---

(١) المسند (٢/١)، وأخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٢١)، وقال الألباني في صحيح أبي داود "صحيح" (٢٨٣/١)، والترمذي في سننه (٤٠٦)، (٣٠١٧)، وابن ماجة في إقامة الصلاة (١٣٩٢) بألفاظ مختلفة.

(٢) سورة النساء : (١١٠).

(١)» tÏèÏ±o0 ÏM»t6Íh‹Ï9 ¨bÎ) ©!$# ¨@ä. ¨bÎ) ©!$# ÞOçFø)n=yz ÏM»t6Íh‹Ï9 ¨bÎ) ©!$# ¨@ä. ¨bÎ) ©!$# ÞOçFø)n=yz

الآية، وذلك كله وسواه يدل بوضوح على اليسر في العلاج، والرحمة والعناية بالمذنب، فلم يُحِل الله تعالى عبده المذنب إلى أعمال شاقة يقوم بها لكي يغفر له ذنبه، ولم يجعل لمغفرته سبحانه واسطة بينه وبين عبده المذنب، ولو فرضنا أن العبد المذنب لا ينال المغفرة إلا بواسطة بشرية أو ملائكية مثلاً، لكان في ذلك مذلة للعبد المذنب لغير الله تعالى وإعنات وإرهاق له. والحديث الشريف يبين سهولة ويسر مغفرة الله تعالى للمذنبين، فلا وسائط ولا كهنوت، ولا آباء روحيين في الإسلام، بل اليسر والسهولة، والوضوح التام في وسائل العلاج، وهي وسائل فيها تكريم للإنسان، واهتمام بمكانته، وترغيب له في الإقبال على سيده ومولاه بالصلاة بين يديه، واستغفاره، وهو سبحانه غفور رحيم.

وأين هذا مما هو موجود في كثير من الديانات اليوم حيث يتسلط القساوسة والرهبان، وغيرهم على المذنبين، فيذل هؤلاء المذنبون لأولئك، وتسحق كرامتهم على كراسي الاعتراف الكاذبة، فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيمة التي أكرم بها الله المسلم، فلا يطلب المسلم المغفرة إلا من ربه خالقه والعليم بأسراره وخفاياه، وليس المذنب في الإسلام إنساناً لا

(١) سورة آل عمران : (١٣٥).

يرجى منه خير، بل هو إنسان أخطأ وعليه أن يصلح خطأه. ودينه الإسلامي العظيم بين له سبل إصلاح خطئه ليرجع إلى دائرة الصلاح والخير والتقوى. قال الفخر الرازي في تفسيره للآية: ((واعلم أن وجه النظم من وجهين: الأول: أن الله تعالى لما وصف الجنة بأ ا معدة للمتقين، بيَّن أن المتقين قسمان: أحدهما الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس. وثانيهما الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله: ¼ (qèèù #Œ) šú ï‰Ïèø ùû«!$# ¼çµ¯Rr& (١) وبيَّن تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كو ا متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله))(٢).

وقد تبين لنا فيما مضى أن الاستغفار علاج رباني للذنوب، وأنه طريق العودة إلى الله تعالى، وأنه مهلك للشيطان اللعين ومدمر لمخططاته الشريرة. وأنه سفينة النجاة من طوفان الذنوب والخطايا، ولذلك فلا يليق بالمسلم أن يغفل عنه في يومه وليله حتى لا تطوى صحيفة عمله في يومه أو ليله وهي خالية من الاستغفار، فإن الاستغفار سبب لمحو السيئات وتفريج الهموم

---

(١) سورة آل عمران : (١٣٥).

(٢) تفسير الفخر الرازي، المجلد الخامس، الجزء التاسع ص (٩).

والكربات، والنجاة من العذاب، وسبب لسعة الأرزاق، وكثرة الأموال والأولاد، والقوة والمنعة، وسهولة المعاش ويسر الحال، وجمال الحياة، وحصول الأمن والأمان، وكثرة الخيرات والبركات، وكثرة أهل الخير والفضل، وحفظ حقوقهم وأقدارهم(١). وكان سيدنا رسول الله r من أكثر العباد استغفاراً لربه، وكان أصحابه – رضي الله عنهم – يحصون عليه في المجلس الواحد قوله r: (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم) مائة مرة(٢)، وقد بشر r بالجنة من وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً، فعن عبدالله بن بشر – رضي الله عنه – قال: سمعت النبي r يقول: ((**طوبى لمن وَجَدَ في صحيفته استغفاراً كثيراً**))(٣).

إن ترك الاستغفار بالكلية أمر سيء في حياة المسلم، وله آثاره الرهيبة المدمرة على حياة صاحبه، ويجلب سوء الخاتمة، والعذاب في الآخرة والعياذ بالله، إنه لا يترك الاستغفار إلا هالك، وذلك لأن الاستغفار دعاء وذكر لله

---

(١) سيأتي الحديث مفصلاً عن فوائد وثمرات الاستغفار.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الاستغفار، حديث (١٥١٦) والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من المجلس، حديث (٣٤٣٤) والبخاري في الأدب المفرد، باب سيد الاستغفار، حديث (٦١٨) عن مالك بن مغول عن محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً مثله.

(٣) رواه ابن ماجة في الأدب، باب الاستغفار (٣٣٨/٢) برقم (٣٨٦٣) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه: إسناده صحيح، ورجاله ثقات (١٣٥/٤).

تعالى، والله تعالى توعد المعرضين المستكبرين عن دعائه بدخول جهنم وبئس المصير. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١].

والمعرض عن ذكر الله تعالى مُتَوعَّد بحياة التعاسة والشدة والضنك، ويحشره الله تعالى يوم القيامة أعمى. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[٢] فالذي لا يذكر الله تعالى بالاستغفار، ولا يطلب منه المغفرة هو إنسان ميت لا حياة فيه، وإن بدا متحركاً في عالم الأشباح إلا أنه ميت في عالم الأرواح، قال ﷺ: ((**مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**))[٣]. قال

---

(١) سورة غافر: (٦٠).
(٢) سورة طه: (١٢٤).
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، حديث (٦٤٠٧) عن أبي موسى الأشعري.

صاحب الفتح: ((والمراد بالذكر هنا الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها مثل: الباقيات الصالحات، وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وما يلتحق بها من الحوقلة، والبسملة، والحَسْبَلَة، والاستغفار))(١).

والاستغفار له دور هام في تنقية القلب من شوائب وضباب الغفلة المترتبة على المعصية، وهو يحول – بقدرة الله تعالى – بين القلب وبين الران، الذي يغلفه. قال رسول الله r : ((**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة فإن هو نزع واستغفر صقلت، فإن عاد زيد فيها حتى تغلف قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى:** ¼ . ¼x @/ b#‘ 4?ã

.(٢)((» bqçÅ3f {qç. $B Nïïqæ

وفي الحديث الشريف بيان لأهمية الاستغفار وأثره في حياة القلب وقوته، وذلك أن للمعصية أثراً خطيراً على حياة القلب وقوته وصحته، فهي تحدث في القلب ضعفاً ووهناً، فإما أن يموت القلب بسببها أو يمرض مرضاً

---

(١) فتح الباري (٢٠٩/١١)

(٢) سورة المطففين، والحديث أخرجه الترمذي في التفسير (٣٣٣٤) باب: ومن سورة ويل للمطففين من حديث أبي هريرة، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة في الزهد (٤٢٩٨) واللفظ للترمذي.

مخوفاً، أو تضعف قوته حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي r وهي: الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وغلبة الدين، وقهر الرجال(١).

والقلب إذا مرض أو فسد نتج عن ذلك مرض وفساد الجسد كله كما بيَّن الرسول الله r بقوله: ((**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**))(٢) ويجيء الاستغفار سبباً من الأسباب التي تحول دون موت القلب أو فساده أو مرضه، وذلك يؤكد أن الاستغفار الذي له هذا الأثر هو الاستغفار الذي ينفعل به القلب فيتجاوب به مع اللسان، ويقوى القلب بهذا الانفعال المتكرر على تحريك أجزائه وتنشيطها فتتفاعل هذه الأجزاء كلها بالاستغفار فتضيء جنباتها وتشرق أرجاؤها كلُّها بنور العودة إلى الله تعالى فلا يمكن بعدها لخفافيش ظلام المعصية إلا أن تفِرَّ بعيدة عن القلب، وتبحث عن مكان مظلم خرب تحط فيه برحالها.

ومعنى ذلك أن الاستغفار الذي لا يتجاوز النطق باللسان لا فائدة

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الهم (٢٥٧/٨)، حديث (٥٤٥٠) عن أنس بن مالك.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث (٥٢) ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث (١٠٧) من طرق عن زكريا عن الشعبي عن النعمان بن بشير مرفوعاً.

تُرجى من ورائه؛ لأنه لا يدل على إرادة التوبة، والخلاص من المعصية والعودة إلى الله تعالى. فعدم إرادة التوبة دليلٌ على تأثير المعصية في القلب، وأ ا أوجدت فيه الضعف عن إرادته فيما يصلحه، وقوت فيه إرادته لما يضره، فيُرَى مثل صاحب هذا القلب كما يقول ابن القيم

– رحمه الله – : ((تقوى فيه إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية مصر عليها عازم على مواقعتها متى أمكنها، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك))(١).

قال القرطبي في تفسيره: ((قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يحل عقد الإصرار ويثبت معناه في الجنان لا التلفظ باللسان، فإذا قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصرٌّ على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر، وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار))(٢).

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (٦٠).
(٢) تفسير القرطبي (٤/٢١٠).

وذلك يدل على وظيفة الاستغفار في حياة صاحبه، وأنه بابٌ من أبواب التربية الإسلامية الراشدة التي يتربى من خلالها المسلم على طريق العبودية والحاجة لله تعالى والرجوع إليه سبحانه. فقول المسلم: أستغفر الله بلسانه، وتمثل ذلك القول وأبعاده ودلالاته بقلبه، من شأن ذلك أن يجعل المسلم يدرك معاني وأبعاد ذلك القول، فتنفعل نفسه مع ذلك الإدراك تفاعلاً يجعله يتألق في إدراك أهمية طلب المغفرة، وإدراك شأ ـ وأثرها في حياته وهو يعلم بيقين أن الله تعالى وحده هو غافر الذنب، وهو سبحانه الغفور الرحيم، وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستغفار توحيد لله تعالى وإقرارٌ بربوبيته، وإلهيته وذلك أن قول المستغفر: أستغفر الله، معناه أطلب المغفرة من الله تعالى. ومعنى ذلك أنه أيقن بأنه لا أحد بإمكانه أن يغفر ذنبه، فتوجه إلى من يقدر على ذلك وهو الإله الحق سبحانه، وأيقن أنه عبد محتاج لربٍّ كريمٍ غفورٍ رحيمٍ قادرٍ قاهرٍ ستارٍ حييٍّ ودودٍ، فتشرق نفسه بهذا اليقين، ويزداد تألقاً في تربية نفسه على طريق الاستغفار حين تزول عن قلبه غشاوات كانت، فيقوى القلب ويتعافى بالمعرفة التي يصحح صاحبه بها مساره في الحياة، فيعرف أن الله تعالى أمهله وستره، ولم يعاجله بالعقوبة وهو القادر والمطلع عليه، ثم فتح له باب الاستغفار والإنابة، ويذكر المذنب المستغفر ذنوبه وخطاياه، وكيف أ ـ لو كانت منهياً عنها من أحد من البشر القادر عليه، ثم خالفه وعصاه

بفعلها فإنه سيعاجله بالعقوبة الأليمة الرادعة ويتبع أثره أينما حل حتى ولو حاول أن يفلت من العقاب. يذكر المذنب المستغفر ذلك وسواه فيأخذ الحياء من نفسه مأخذاً كبيراً فتجيش عواطفه ومشاعره بالبكاء خشية من الله تعالى القادر القاهر الرحيم العفو الكريم، ويلين لسانه وقلبه بذكر الله تعالى واستغفاره، من ذنوب وخطايا لو انتشر في الهواء شيء منها لقتلت الإنسان والحيوان والنبات من نتن ريحها، ولأهلكت الحرث والنسل، فالحمد لله الذي ستر أهل الذنوب والمعاصي، ولم يجعل لذنوبهم ومعاصيهم ريحاً ينتشر في الهواء، وإلا لأصبحت الحياة جحيماً لا يطاق، ففي ساحة الاستغفار الواسعة يتحرك المذنبون وهم يقفون على مدرج العبودية لله تعالى، مطَّرحين بين يديه ملقين بأحمالهم، وأثقالهم أمام باب رحمته، ومغفرته، منكسرين، متذللين لجلاله، وعظمته، يخاطبونه بكلام رقيق جميل تعلموه من نبيهم نبي الرحمة والخير، سيدنا رسول الله r ، وذلك هو سيد الاستغفار: روى شداد بن أوس – رضي الله عنه – قال: قال النبي r : **((سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))**(١).

(١) رواه البخاري في الدعوات، باب أفضل الاستغفار حديث (٦٣٠٦).

وهو حقيقٌ بأن يسمى سيد الاستغفار لما اشتمل عليه من معاني الإقرار لله تعالى بالربوبية والإلهية، والاعتراف من المستغفر بعبوديته لله سبحانه، وأنه عبدٌ مخلوق لله جل جلاله، وأنه على العهد والوعد له جل وعلا بالطاعة وعبادته سبحانه على قدر الاستطاعة، فهو استشعار من العبد المستغفر لضخامة الذنب وفظاعته، وهو يلجأ إلى الله تعالى ويستعيذ به من عاقبة على ما صنعت يداه، فقد أدرك خطر الشر المترتب على الذنوب والمعاصي. وهو في ذات الوقت يستشعر نعم الله عليه ظاهرة وباطنة، ولسان حاله يقول: كيف يكون مني هذا العصيان واقتراف السيئات في جانب الله تعالى وأنا أتقلب في نعمه وعطاياه، وكل شيء عندي هو من نعمه وعطاياه؟ فكيف يليق بي ما صنعت في حق الجليل الكريم والرب الرحيم؟ وأين كان عقلي وفكري حين قارفت المعاصي، وركبت في قارب الشيطان الرجيم فأبحر بي في بحار الشهوات المحرمة والملذات الآثمة؟ وما هي النتيجة بعد تلك الرحلة المظلمة الظالمة الآثمة؟ وهل أورثني ذلك عزة في النفس، أو سعادة في القلب، وأنساً في الروح، أو نوراً وضياء في الوجه، أو انشراحاً في الصدر؟ كلا وألف كلا، لم يحصل شيء من ذلك، بل لقد أورثتني تلك الرحلة في قارب الشيطان الرجيم، شقاءً ووحشة في نفسي، وذلاً أجده في قلبي، وظلاماً في وجهي، وضيقاً في صدري، وخوفاً رهيباً يحيط بي، ووجدت في

حياتي أشياء غريبة مزعجة ظاهراً وباطناً، ما كان لها وجود في حياتي قبل تلك الرحلة المهلكة في بحر المعاصي والذنوب. يستشعر العبد المذنب المستغفر هذه المعاني، وسواها فيعترف بذنبه بين يدي ربه، ويسأله المغفرة لذنوبه؛ لأنه يعلم أنه لا يغفرها إلا ربه الرحيم الغفور الكريم. وهذا النص النبوي الشريف في بيان سيد الاستغفار معلم كريم من معالم التربية الإسلامية في ميدان الدعاء لله تعالى باستغفاره، وطلب المغفرة منه سبحانه، فقد اشتمل على مهمات شروط الدعاء وآدابه من الثناء على الله تعالى، والدخول إلى مناجاته من ساحة الربوبية، والإقرار بين يديه بأنه الإله الذي لا إله إلا هو خالق الخلق أجمعين، والاعتراف بالعبودية له سبحانه، والاطِّراح بين يديه واللجوء إليه بالاستعاذة به من شر المعاصي والذنوب، والاعتراف له بنعمه على عبيده، والإقرار بالذنب ثم طلب المغفرة منه سبحانه.

ولما كان سيد الاستغفار مشتملاً على هذه المعاني الجليلة من التعظيم لله تعالى والثناء عليه بما هو أهله جل جلاله، وكان مشتملاً على معاني التذلل والخضوع والانكسار لجلاله، والاطِّراح بين يديه وسؤاله سؤال انكسار ورغبة ورهبة، أن يغفر الذنب ويعفو ويصفح بعد الاعتراف بما اقترف العبد من الذنوب، كان ما ترتب عليه من الرحمة والفضل والعطاء شيئاً عظيماً لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ولذلك جاء في آخر الحديث قوله r : ((**من قالها في النهار موقناً**

بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها في الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة))(١).

وقد سبق وأن أشرنا فيما مضى إلى أن القرآن الكريم في بيانه للاستغفار وشأنه، وبيان أوصاف المستغفرين، لم يذكر في ذلك مجيء وصف المستغفرين إلا مقترناً بصفات أخرى جليلة كريمة، وذلك يدل على شأن الاستغفار وأثره، وأنه عملية نفسية يتحول من خلالها المذنب إلى الحركة والعمل صلاحاً وإصلاحاً.

وفي حديثنا عن الآية رقم مائة وخمس وثلاثين من سورة آل عمران والتي قبلها بيان لشيء من ذلك. ونحن على موعد مع الآيات الكريمة التالية من سورة آل عمران وهي من بين آيات كريمة وردت في الاستغفار وسبق الوعد بالحديث عنها وهي قول الله تعالى:

‰ZËa ¢(ö)?$ûïÏ‰Ø Ùà6 Ï°Œ `B Ÿ»b‚Î /ãæ¦Ra @è * ¼

$gŠÙ ûïÏ$Ï» z ãgR¦Ç$$gÏtB `B “ ì¬ ? M»Y_ Ó©gÎ‘

Ž•Å/ ª! $ « ¢$ šÆ Ë Òc °qÊí r •gÜB Ó°rãr

(١) سبقت الإشارة إلى تخريج الحديث.

قال القرطبي في تفسيره: ((قال ابن عطية: وهذه الآية والتي قبلها نظير قوله عليه السلام: ((**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**))[٢] فقوله عليه السلام: (فاظفر بذات الدين) مثالٌ لهذه الآية، وما قبل مثال للأولى))[٣] والآية التي قبل هذه الآيات هي قول الله تبارك وتعالى:

---

(١) سورة آل عمران : (١٥ إلى ١٧).

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين (١٤٩/٦) حديث (٥٠٩٠) واللفظ له، وأخرجه مسلم في الرضاع، حديث (١٤٦٦).

(٣) تفسير القرطبي (٣٧/٤) وانظر: تفسير ابن عطية (٤٧/٣).

íÜZ)ÎÜ»Y)ûüZ6ä¡Y9$šÆ ËÑ°qg±9$

É»èRF{$ þB§¡Èø,þZÒÿ É¢d%!$šÆ Ë

¼ç‰Yëª$ $‹R‰9$íq‹sÎß»FBš• Ÿ°Ï^ösÎ

والعلاقة بين هذه الآية الكريمة والآيات التي (١) »É≥$«JÚÆ ó ãn

بعدها واضحة من خلال بيان المتاع الدنيوي والمتاع الأخروي.

وهما يمثلان طريقين، لكل طريق منهما عشاقه ومحبوه والعاملون الساهرون لأجله، ولكن يبقى هناك فرقٌ واسع، وبون شاسعٌ بين متاع يفنى ويزول، ونعيمٍ يبقى ويدوم، والناس ضعفاء أمام حب الشهوات المزينة، خاصة إذا كانت تلك الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، قال العلماء: ((ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس؛ أما الذهب والفضة فيتموَّل بها التجار، وأما الخيل المسومة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول بها أهل القرى والبساتين. فتكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول، فأما النساء والبنون ففتنة

(١) سورة آل عمران : (١٤).

للجميع)) (١).

والإسلام العظيم يضبط علاقة المسلم بهذه الشهوات المباحة ولا يكبتها، وفرقٌ كبيرٌ بين الضبط والكبت، والتعبير الكريم في الآية الكريمة بصياغة الفعل للمجهول هنا يشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن الميل إلى ما هو محبب ومزين، وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه، ففي الإنسان ميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل لا ينكر ولا يستنكر (٢).

ويلحظ المتأمل في النص الكريم أن أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان قد جمعت كلها في آية واحدة، ولعل ذلك يشير إلى قصر أمدها، فهي متاع سيفنى ويزول. والإسلام العظيم يضبط حركة المسلم – وهو يتعامل مع هذه الشهوات – فيدعوه إلى معرفة طبيعتها ووضعها في مكا ا المناسب لها لا تتعداه ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى.

وفي هذه الآيات الكريمة بعض سمات المنهج القرآني الفريد الرشيد في تنظيم علاقة الإنسان بشهوات الأرض، وذلك بلفت نظره إلى نعيم الآخرة الذي لا يزول ولا يحول ولا يناله إلا صنف واحد من الناس، هم المتقون الذين اتقوا ربهم بفعل ما أُمروا به واجتناب ما ُوا عنه، ثم يأخذ المنهج

---

(١) تفسير القرطبي (٣٦/٤).

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد الأول، الجزء الثالث ص (٣٧٣).

القرآني العظيم بعداً آخر في التربية على الصبر على تلك الشهوات المحببة غير المحرمة وعدم الإغراق فيها، وذلك ببيان ما يقابلها من نعيم مقيم في جنات نعيم عند رب كريم رحيم، فإذا كان متاع الناس في الدنيا الفانية حرثاً معطياً مخصباً، فللمتقين في الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأ ار، وهي فوق هذا خالدة، وهم خالدون فيها، لا كالحرث المحدود الميقات. وإذا كان متاع الناس في الدنيا نساء وبنين، فإن نعيم المتقين في الآخرة أزواج مطهرة، وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض. فأما الخيل المسومة، والأنعام، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، فقد كانت في دنيا الناس وسائل لتحقيق متاع زائل، فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات(١)، فالغاية قد تحققت للمتقين بدخول الجنة، ثم يكرم المتقون بما هو أكبر من كل متاع في الدنيا والآخرة وذلك هو رضوان الله تعالى عليهم.

والذي يأخذ باهتمام المتأمل في صفات هؤلاء المتقين أ ا صدرت بصفة دعائهم لله تعالى وطلبهم منه سبحانه مغفرة ذنوبهم، وفي دعائهم ما ينم عن تقواهم، فهذا علامة للإيمان، وتوسُّلٌ به بين يدي الله تعالى، وطلب للغفران وتوق من النيران. وطلب المغفرة من الله تعالى هو هاجس كل مؤمن فهو لا يغفل عنه، بل يردده ليلاً و اراً، سراً وجهاراً، وذلك أن المغفرة إذا

(١) انظر فيما سبق: في ظلال القرآن لسيد قطب، المجلد الأول، الجزء الثالث ص (٣٧٤-٣٧٥).

صحت فما بعدها أيسر منها، وإذا لم تصح فما بعدها أعسر منها، فهي الأصل، وهي المنجية من الهلاك، وقد جعلها الله تعالى ثواباً عن قيام ليلة القدر التي قيامها خير من العمل في ألف شهر بحمل السلاح في سبيل الله تعالى(١).

وقدم هؤلاء المتقون في دعائهم إيما ـم متوسلين به إلى ربهم، وفيه دليل على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وما يقربه إلى الله ثم يدعو، ويؤيده ما في الصحيحين من حديث أصحاب الغار وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تفريج الباري عنهم(٢).

وفي الآية الكريمة توجيه قرآني كريم بأهمية العمل الصالح ومشروعية التوسل به إلى الله تعالى، فقول المتقين: ¼ ‘/Y$]Ř$Y وقولهم بعده: ¼ ïÙøâyJ9 Ž$Z ÇÚqè/Y$ » دالٌ على أ ـم توسلوا بمجرد الإيمان إلى طلب المغفرة، والله تعالى ذكر ذلك عنهم في معرض المدح

(١) انظر: بهجة النفوس لابن أبي جمرة الأندلسي (٦٧/١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديْه، حديث (٥٩٧٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، حديث (٢٧٤٣).

لهم.

وقد ورد التنويه بشأن المستغفرين بالأسحار، وأ م إضافة إلى هذه الصفة فهم قبل ذلك مؤمنون، صابرون، صادقون، قانتون، منفقون. ولو وقف متأمل أمام كل صفة من هذه الصفات يستخرج من كل صفة منها ما حوته من معانٍ جليلة، كريمة، سامية، ذات أثر كريمٍ فعال في حياة الفرد والمجتمع والأمة لما اتسع له المقام.

فالإيمان هو قطب الرحى في الحياة، وهو مصدر كل خير، وأساس كل معنى نبيلٍ كريمٍ، والحياة هي جميلة بالمؤمنين، فنعم الأوفياء هم لدينهم وأمتهم، وهم النور الذي يضيء جنبات الحياة، وبوجودهم تصلح الحياة وتحلو، بدليل أن القيامة لا تقوم وفي الأرض مَنْ يقول: الله، الله، بل تقوم على شرار الخلق(١).

والصبر هو ملاك فعل الطاعات، وترك المعاصي، وهو ترفع على الألم واستعلاء على الشكوى، وثبات على تكاليف الدعوة، وأداء لتكاليف الحق، وتسليم لله تعالى، واستسلام لأمره سبحانه، وقبول لحكمه، ورضاء بقدره في تجملٍ، وتحملٍ، وسماحةٍ، وكرامة.

والصبر هو مطية الرجال، وهو مطية لا تكبو ولا تنبو، فمن لا صبر عنده فلا خير فيه، ولا تنال مطالب الدنيا إلا بالصبر، ولا تدرك الآخرة إلا

---

(١) انظر: صحيح مسلم، حديث رقم (١٤٨) وحديث رقم (٢٩٤٩).

بالصبر. والله تعالى أثنى على عباده الصابرين في كتابه الكريم، وبيَّن أن صفة الصبر صفة جليلة كريمة تنشأ عنها صفات أخرى نبيلة يحبها الله تعالى ورسوله r ، ومن ذلك هذه الآيات الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها.

والصدق هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمة، وفي الصدق اعتزاز بالحق الذي هو قوام الوجود. والصدق هو سفينة النجاة في طوفان الحياة، وعاقبة الصدق دائماً عاقبة طيبة، والصادق إنسان عزيز النفس، كريم المشاعر، مبارك الخطى والأنفاس، حبيب الله تعالى ورسوله r والمؤمنين، والأشياء بضدها تتميز، فإذا كان هذا شأن الصدق وأهله، فإن الكذب أقبح شيء في الإنسان، وبالتالي فإن الكذاب إنسان يمثل عضواً مريضاً في مجتمعه وأمته، بل هو عضو فاسد، لا ينشأ منه إلا كل فسادٍ وهلاكٍ، والكذب نقيض الإيمان، ولذلك فإن انتشار الكذب في مجتمع ما دليل على انعدام الإيمان فيه. ومجالات الصدق متعددة، ومن ذلك صدق النوايا، وصدق الأقوال، وصدق الأفعال، وما أجلّ الصدق حين يكون مع الصبر، ولا يقدر على ذلك إلا مؤمن تقي.

والقنوت: هو المداومة على العبادة والمواظبة عليها في أوقاتها وإتقا ا، وهو عبادة نفسية بدنية، وهو لا يكون إلا لله جل جلاله، فهو أداء لحق الإلهية، وواجب العبودية، وتحقيق لكرامة النفس الإنسانية بالقنوت لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لا قنوت لسواه.

والإنفاق تحررٌ من الشح والبخل، وإحساس بقيمة الأخوة الإيمانية(١)، وهو دليل على كرامة النفس، وسمو المشاعر، والتصديق بالموعود الإلهي الكريم في الإخلاف على المنفق، فما كان المنفق إلا كريم النفس، وما كان البخيل إلا لئيم النفس؛ لأن البخيل سيء الظن بالله تعالى . ولقد أحسن المنفق الظن بالله تعالى فصدَّق بموعوده الكريم، وانطلقت يداه بالإنفاق في سبيل الله تعالى، فأخلف الله تعالى عليه ما أنفقه في سبيله عطاءً وسعةً، مصداقاً لقوله تعالى:

ÏŠ$¨Z9$# ÉOøOÎ) tbqãèÏÛr& ÇÚöF{$# ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ÏM»tƒÏ‰ôgßJø9$# ÏNºuŽöxî ×M»tƒÏ‰ôgßJø9$# ÏNºuŽöxî ÒOŠÎ=tæ ÇÊÈ

.(٢)

وتأتي صفة الاستغفار بالأسحار بعد تلك الصفات، تلقي بظلالها الندية الجميلة فتبعث في النفس السكينة والطمأنينة، فالسَّحر هو تلك الفترة من ثلث الليل وآخره قبل طلوع الفجر حيث يصفو الجو ويرق ويسكن، وحيث تقل الحركات، وتهدأ الأصوات مع سكون الليل، وقلة الشاغل وتترقرق خواطر النفس وخوالجها الحبيسة، ويصفو الجو للمناجاة، ويجيء الاستغفار

---

(١) انظر فيما سبق: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨٥/٣).
(٢) سورة سبأ : (٣٩).

في هذا الجو المهيب بما يدل عليه من معاني المناجاة والذكر والاعتراف بالذنب، والدعاء وطلب الغفران من الله الحنان المنان فيلقي بظلالٍ من الرغبة والرهبة لله الجليل العظيم فتنساب هذه المعاني وتلك الظلال في عالم النفس، فتنفعل النفس بذلك انفعالاً يتناغم مع الكون المسبح لخالقه جل جلاله في ذلك الوقت الجميل الهادئ المهيب، فتجيء كلمات الاستغفار على ألسنة المستغفرين توبة جميلة تعبر عن مدى حاجة العبد المذنب الفقير إلى ربه الغني الكبير، فيا لها من لحظاتٍ جليلةٍ لها أثرها الجميل في قوة النفس وصفائها، وصقلها، وفي صحة القلب وصفائه، وفي قوة البدن وعافيته، وفي حصول السداد والتوفيق في الأقوال والأفعال والأحوال. والمؤمنون هم أهل الاستغفار بالأسحار وطلب المغفرة لذنوبهم من الله تعالى، وهم أهل الصبر، والصدق، والقنوت، والإنفاق، وجاءت هذه الصفات الجليلة التي وصف بها المؤمنون في هذه الآيات الكريمة – وقد رتبت في الذكر – ترتيبها في الوجود، فالصبر يؤدي إلى الصدق، وإذا صبر المرء وصدق، صبر لله تعالى، وصدق له سبحانه، فهو مهيأ لذلك المقام الشريف، وهو القنوت لله جل جلاله، والوقوف بين يديه جل وعلا. فالقنوت لله تعالى دليل الصبر، والصدق. والقنوت والخشوع بين يدي الله تعالى مدرسة عظيمة يتربى فيها المسلم على الصفات الخيرة الجميلة، ويتخلص من صفات ذميمة، فتسمو نفسه بذلك وتصفو، وتسرع بالامتثال

إلى أمر ربها جل وعلا.

والمسلم يتربى من خلال مدرسة القنوت بين يدي الله تعالى على صفات جميلة تسمو بها نفسه، وتتألق على طريق الاستجابة لربها – سبحانه وتعالى – وبالتالي فهي تتخلص من صفات ذميمة.

ومعلوم أن القنوت بين يدي الله تعالى يكون في الصلاة، وليس في سواها، وذلك يدل على وظيفة الصلاة وأثرها في إصلاح النفس.

ولعل هذه المعاني يدل عليها قول الله تعالى في كتابه الكريم: ¼ * ÎbY$Ï¹ `¡ «¯ ,dÌæ ‰æÈÇ Bç¡¡Sç$9 3ž

_âr$ÇÈ Bç¡¡Sç$ØÎ ÇÈ$ãqæB ÎÍ¶ø$ÇÈ $ÎÁ3ø$ÍÎû,

. (١) »bqÇÈ$ÇÈ ûï‰Ï¹ 4?ã Ìè Ìí¯Ï ¹ ÌÍÍ¯Ï#Š Ì3Á

فالقنوت في الصلاة لله جل جلاله، ميدان تكرم فيه نفس المسلم، ومن كرمت نفسه بالصلاة والقنوت لربه، كرمت يداه بالإنفاق في سبيل الله تعالى. وصفات البخل والشح والجزع وسواها من صفات ذميمة لا تبقى في نفس أحسنت القنوت بين يدي ربها في صلاتها، ولعل هذا المعنى يمكن أن يستفاد من مجيء اقتران إقامة الصلاة، بإيتاء الزكاة، والإنفاق في القرآن

(١) سورة المعارج : (١٩ إلى ٢٣).

الكريم. وهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران – والتي نحن بصدد الحديث عنها، والتي تضمنت بيان صفات كريمة لعباد الله المؤمنين – جاءت فيها صفة الإنفاق بعد صفة القنوت. فالعلاقة بين الصفتين واضحة والتناسب بيّنٌ. وقد جاءت صفة الاستغفار بالأسحار آخر الصفات ذكراً، وذلك دليل على شرف الاستغفار في هذا الوقت وأثره، وأنه مقام شريف منيف لا يرومه إلا من صبر، وصدق، وقنت، وأنفق لله رب العالمين، وقد سبق البيان بأن ترتيب هذه الصفات مذكور بناء على وجودها في الواقع. والاستغفار بالأسحار يكون بعد عملٍ وذكرٍ يقوم به المسلم بين يدي ربه في الصلاة.

قال صاحب التفسير الكبير: ((واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء؛ لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك فقوله سبحانه: ¼ ßŠθãΖtΒ#u™ šÚö‘F{$#ur šúïÏ%©!$# ßìÏÜó¡o„ ÒΟŠÏàtã «[1] يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل))[2].

والصلاة بالليل أي قيام الليل، عبادة شريفة عزيزة، ذات أثر فعال واضح في صحة القلب، وانشراح الصدر، وقوة النفس، وعافية البدن، وفي الإقبال

---

(١) سورة آل عمران: (١٧).

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (٤/٧/٢١٨).

على الطاعات بهمة ونشاط، وهي نور ينور وجه صاحبه وحياته كلها، وهي إلى جانب ذلك نار تحرق إبليس اللعين وأشياعه، وتدمر مخططاتهم في بث الشكوك والوساوس، والأوهام وسيء الخطرات في النفوس.

فصلاة الليل ذات أثر كبير في طرد النسيان، وتقوية الذاكرة، وصفاء الذهن. والمؤمنون لا تكفيهم صلاة الليل بما حوته من خيرات وبركات، ولكنهم يتبعون ذلك بالاستغفار لربهم الرحيم الغفار، وذلك دليل على تقواهم لله وخشيتهم له سبحانه، فهم في هذا الوقت من الليل يذكرون ذنوبهم ويفزعون إلى ربهم بالاستغفار، والبكاء بين يديه سبحانه، والحال أ م قد قاموا ليلهم قانتين لربهم، واقفين على باب عطائه الكريم، حتى إنه ليخيل للمرء – وهو يتأمل صنيعهم بكثرة استغفارهم بعد ذلك – أ م لم يكونوا في طاعةٍ.

والقرآن الكريم حين ينص على صفة (الاستغفار بالأسحار) في المؤمنين فإن ذلك من شأنه أن يدل على الأمور التالية:

أولاً: بيان شرف المؤمنين وعزة نفوسهم، وأ م رهبان الليل، فرسان النهار.

ثانياً: بيان شرف وقت السَّحر عند الله تعالى.

ثالثاً: بيان شأن الاستغفار وأثره في هذا الوقت بالذات، وقد قيل: إن

يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه: pîr Ña9 ëÿóCM& š’ ô™ ¼ «(١) أخر ذلك إلى وقت السَّحر(٢).

وقد روى الأئمة عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي r : ((**ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر**))(٣).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: أمرنا أن نستغفر بالسَّحر سبعين استغفارةً(٤).

وقال سفيان الثوري: ((بلغني أنه إذا كان أول الليل نادى منادٍ: ليَقُمْ القانتون، فيقومون كذلك يصلون إلى السَّحر، فإذا كان عند السَّحر نادى منادٍ: أين المستغفرون؟ فيستغفر أولئك ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم، فإذا طلع الفجر نادى منادٍ: ألا ليقم الغافلون، فيقومون من فرشهم كالموتى

---

(١) سورة يوسف : (٩٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣٥٣/١).
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٦٩) بهذا اللفظ، والبخاري في صحيحه بلفظ مختلف (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤).
(٤) تفسير القرطبي (٣٨/٤).

نشروا من قبورهم))[١].

وقال نافع: كان ابن عمر يقوم الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ (أي دخلنا في وقت السَّحر) فأقول: لا، فيعاود الصلاة، ثم يسأل: فإذا قلت: نعم، قعد يستغفر[٢].

وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيه، قال: سمعت رجلاً في السَّحر في ناحية المسجد يقول: يا رب أمرتني فأطعتك، وهذا سحر فاغفر لي، فنظرت فإذا هو ابن مسعود[٣]. وهذا يدل على اهتمام الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – واعتنائهم بوقت السَّحر، وأ م كانوا يترقبون دخوله، فيقبلون على الاستغفار وذلك لأن السَّحر وقت يرجى فيه القبول وإجابة الدعاء. وقد قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني لا يكن الديك أكيس منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم[٤].

وإضافة إلى ما سبق ذكره، فالاستغفار في وقت السَّحر له مزيد أثرٍ في قوة الإيمان، وكمال العبودية لله تعالى، ففي وقت السَّحر يطلع نور الصبح بعد أن كانت الظلمة شاملةً للكل، وبسبب نور الصبح يستيقظ النوام

---

(١) نفس المصدر (٣٩/٤).
(٢) تفسير القرطبي (٣٩/٤، ٤٠)
(٣) نفس المصدر (٤٠/٤).
(٤) المصدر نفسه.

الذين كانوا في عداد الموتى فيصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير طلوع صبح العالم الصغير، وذلك هو نور الله تعالى في قلوب عباده المؤمنين، وذلك أن وقت السَّحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن لذة النوم في هذا الوقت، وأقبل على ساحة الاستغفار مظهراً عبوديته لسيده وخالقه جل جلاله، كانت طاعته في ذلك الوقت أكمل وأتم، لحاجة النفس للراحة واشتداد حاجتها لذلك وهو الليل كله وخاصة آخره إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة. وقد دلّ القرآن الكريم على فضل هؤلاء المؤمنين وصلاحهم، بما يبذلونه من مكابدة لقيام الليل تقرباً إلى الله تعالى، غير أن قيامهم بالليل في هذه الآيات الكريمة قد طوى فلم يذكر، اعتماداً على فطنة المسلم الذي يدرك أن من يستغفر بالأسحار لا بد أن يكون من قوَّام الليل، ولذلك فقد أعطى القرآن الكريم النتيجة التي يؤدي إليها قيام الليل، فكأن في ذكر الاستغفار بالأسحار ذكراً لقيام الليل وقد جاء ذلك مصرحاً به في سورة الذاريات من قول الله تعالى: ¼ Aqèãr ¦M»Z_ 'Î ûüÉG3ß¹b) ¾

7ÏŒÉ ÖÖ6 ¨qè. ÚÏÅ) ÚÏÅ‘ ÚG9?#ä $B ûïÉÏ{ #ä ÇÎÈ

ÇÏÈ bqãfö $B ÖÖÅ$ `Ï WÏ<Î% ¨qè. ÇÏÈ ûüÏÅ¡ÈÉ

((وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصْلَيْ إصلاح النفس، وإصلاح الناس، وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال، فإن صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر، ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضا الله تعالى، وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل، وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائلين نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته، وفي جعلهم الحق للمحروم نفع المحتاج المتعفف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج)) (٢).

ومما يحسن التأكيد عليه في حديثنا عن الآيات الكريمة من سورة آل عمران أن الصفات الخمس التي وصف بها المؤمنون جاءت كل صفة منها بصفة اسم الفاعل بصيغة الجمع، إشارةً إلى أن كل صفة فيهم كأ ا سجية طبعوا عليها، وقد عطفت هذه الصفات على بعضها بالواو إشارة إلى أن كل صفة قد نزلت منزلة ذات مستقلة، وما ذلك إلا لقوة الموصوف في تلك الصفة حتى كأن الواحد صار عدداً، كقولهم: واحد كألفٍ (٣) وإشارة إلى أن

---

(١) سورة الذاريات: (١٥ إلى ١٩).
(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٤٨/٢٦-٣٤٩).
(٣) نفس المصدر (١٨٥/٣).

كل من كان معه واحدة من الصفات دخل تحت المدح العظيم واستوجب هذا الثواب الجزيل، والعلم عند الله تعالى.

ومن الآيات الكريمة الواردة في الاستغفار والتي سبق الوعد بالحديث عنها: الآيات الواردة في سورة نوح – عليه السلام – قال الله تعالى: ¼

è@Aeöa ÇÈ #Yöyî šc %. ¼çRÎ tna/‘ (rèyøFY$èMtù

ûüÏ/r Æ°qøÎ /äšÏ‰ðãr ÇÈ #Y‘ßÏB /æøæ ä$J¡9$

تبين هذه الآيات [1] » #•»k¥ tbθ©@èøtr ¡M»Z_ tbθ©@èøtr

الكريمة بكل جلاءٍ ووضوح شأن الاستغفار وأثره في استقرار حياة المجتمع وأنه سبب لنزول الغيث المدرار وكثرة الأموال والبنين، وما ينشأ عن الغيث المدرار من وفرة المياه والخضرة المنتشرة في كل مكان مما يعطي الحياة بهجةً وجمالاً.

وهذه الآيات الكريمة حقيقة من حقائق القرآن الكريم الخالدة التي تدل على أن الطريق للحياة الفاضلة الشريفة، هو طاعة الله والقيام بحقوقه كاملة، فما من أمةٍ قام فيها شرع الله تعالى، واتَّقَتْه سبحانه وعبدته واتجهت إليه

(١) سورة نوح : (١٠ إلى ١٢).

اتجاهاً حقيقياً بالعمل الصالح والاستغفار المبني على خشيتها له تعالى، وأقامت شرعه، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً، إلا فاضت فيها الخيرات، وفُتِحَتْ عليها البركات من الأرض والسموات، ومكَّن الله لها في الأرض ولم يسلط عليها من يزيلها، وتلك قاعدة في حياة الأمم، يقررها القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة، وفي مواضع أخرى متفرقةٍ، وهي قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله تعالى، ومن سننه في الحياة.

والواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، ولا يصادم هذه القاعدة القرآنية الباقية على مر الشهور والدهور ما يمكن أن يشاهد من أحوال أمم لا تتقي الله تعالى ولا تقيم شرعه وهي مع ذلك موسع عليها في الرزق ممكَّن لها في الأرض، فذلك إنما هو الابتلاء، وقد يمكِّن الله لدولة كافرة في الأرض بسبب عدلها، ما لا يمكِّن لأخرى مسلمة غير عادلة.

قال الله تعالى: ¼ ZFHuïöøîr9$ Näqè[1] الآية.

ثم هو بعد ذلك رخاء عابر وإن امتد عشرات السنين، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي، والانحدار الأخلاقي، والظلم والبغي، وإهدار كرامة الإنسان. والشواهد على ذلك كثيرة في الماضي والحاضر. فالاستغفار المبني على خشية

(١) سورة الأنبياء : (٣٥).

الله تعالى والخوف منه يحفظ كيان الأمم من الا يار والاندثار بعد أن ييسر الله تعالى لها أسباب القوة والتمكين وهي المال والرجال، والقرآن الكريم يقدم المال على البنين لسهولة وسرعة الاستفادة منه في الحضر والسفر، والصحة والمرض، وفي سائر الأحوال والأوقات. أما الابن فلا يرجى الاستفادة منه حتى يبلغ مبلغ الرجال والرشد، ويعتمد في السعي على نفسه، ويظهر عقله في تصرفاته، وهذا إذا كان صحيحاً غير مريض، قريباً غير بعيد، بارّاً غير عاقٍ. فمن أجل ذلك وسواه كان المال مقدماً على البنين في الذكر في القرآن لتقدمه في النفع في الواقع المشهود. وتُشعر لفظة ¼ ãΑθß‰ƒÌãƒ « بمدى القدرة الإلهية، والسرعة والسهولة في الإمداد، وذلك أمرٌ هيّن يسير على الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير.

وهذا النص القرآني الكريم بيان واصف كاشف على أن المطر ينزل بالاستغفار لله تعالى، وقد فقه ذلك عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين خرج بالمسلمين يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فأمطروا، فقالوا: ما رأيناك اسْتَسْقَيْتَ؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ¼çμ÷ZÏiB tΑ$s% ¼çμ¯ΡÎ) tΑ$s% ¼çμ¯ΡÎ) (#θçΡ%x. šχθßϑn=ôè

.(١)» #Y#‘ßÖB /ãøæ ä$J¡ 9$ÈÅÇÈ

ويروى عن الحسن البصري – رحمه الله – أن رجلاً شكا إليه الجدوبة، فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر عدم الولد، فقال له: استغفر لله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله. فقيل له: أتاك رجال يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار. فقال الحسن: ما قلت من عندي شيئاً(٢) إن الله تعالى يقول في سورة نوح : šc %. ¼çR) ¼ã/‘ (rãÝóF¨$¼

/ãš‰ðr ÇÈ #Y#‘ßÖB /ãøæ ä$J¡ 9$ÈÅÇÈ #Y$ÝÎ

(٣)» #Y»k¥ ßã©èðr ¡M»Z_ ßã©èðr ûüÏ/r Aºqß'Î

وهذا فهم جميل وفقه لطيف من هذا الإمام، فرحمة الله على سلفنا الصالح.

إن قوم نوح لما كذبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا إلى نوح يشكون حالهم فقال لهم: استغفروا

---

(١) سورة نوح : (١٠-١١).

(٢) تفسير الزمخشري (١٤٢/٤)، وتفسير الخازن (٣٤٥/٤) وتفسير القرطبي (٣٠٢/١٨).

(٣) سورة نوح : (١٠ إلى ١٢).

ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب النعمة(١). والعبرة في الآيات الكريمة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والآيات الكريمة تبين ثمرات الاستغفار لكل المستغفرين ماضياً وحاضراً وآجلاً.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الاستغفار عطية الله ورحمته لخلقه أجمعين، وهو مبذول لهم، ومطلوب منهم جميعاً، مؤمنهم ومنافقهم وكافرهم، وأن الاستغفار يفسر بحسب اقترانه بكل فئةٍ منهم. والاستغفار في هذه الآيات الكريمة من سورة نوح يفسر حسب خصوص نزولها في قوم نوح بأنه ترك الكفر، ويفسر باعتبار عموم اللفظ فيما سوى ذلك بأنه طلب مغفرة الذنوب والمعاصي، وهو الصدق والإخلاص في الأقوال والأعمال، وذلك هو استغفار عمر – رضي الله عنه – وهو الاستغفار الذي أحال عليه الحسن البصري، وليس هو مجرد قول القائل: أستغفر الله. ويلحظ المتأمل في الآيات الكريمة ما يلي:

١- مجيء لفظ (ربكم) دون سواه ترغيباً في الإقبال على الله. فهو رب الخلائق كلها، والرب لا يضيع مربوبيه، ومن خصائص الربوبية: اللطف، والحفظ، والرعاية، والعناية، والوقاية للمربوبين.

٢- في مجيء لفظ (غفار) دون سواه مثل: غافر، وغفور، دلالةٌ على

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٢/١٨) وتفسير الخازن (٣٤٥/٤).

أن لفظ (غفار) يدل على كثرة الفعل والقوة فيه، فالله تعالى غفار لمن استغفره، والمستغفرون أحوالهم وأزما نم متنوعة، فهو سبحانه يغفر بالليل والنهار والسر والجهار، فهي صيغة تدل على كمال غفرانه سبحانه وتعالى.

٣- في مجيء لفظ (كان) مع لفظ (غفار) (فلم يقل: إنه غفار)، بيانٌ بأنه سبحانه كان غفاراً في حق كل من استغفره. كأنه يقول: لا تظنوا أن غفاريته إنما حدثت الآن، بل هو أبداً هكذا(١)، فهي صفة قائمة بذاته سبحانه وتعالى فما أكرم ربنا وأرحمه وأرأفه، فهو جل جلاله غفار للتائبين المستغفرين، والمراد من كونه غفاراً: كونه مُريداً للمغفرة، ومن أعطي الاستغفار لا يمنع المغفرة؛ لأنه تعالى قال: šc %. ¼çR) tûa/‘ (reÿøFO$¼ .(٢)» #Y$ÿ î

٤- في قوله تعالى : #Y‘ßB /aøæ ä$J¡ 9$è@Aeq¼ «(٣) بيان لقدرة الله تعالى، فلفظ (يرسل) يدل على القدرة والقوة

(١) تفسير الفخر الرازي مجلد (١٥) جزء (٣٠) صفحة (١٣٨).
(٢) سورة نوح : (١٠).
(٣) سورة نوح : (١١).

والتمكن، والماء موجود في طبقات الجو العليا، والله تعالى يرسله بقدرته على من يشاء، ويمسكه عمن يشاء.

٥- ويشعر لفظ (مدراراً) بالرحمة في العطاء، فهو مطر هادئ متواصل النزول كثير الانصباب، ينشأ عنه الرزق والخير العميم، ويرى أثره خيراً في كل جانب من جوانب الحياة يقال: سنة دارة، أي كثيرة الخيرات، وعطاء مدرارٌ، أي متواصل، فاللفظ مشعر بالخير في العطاء وأنه خير متوالٍ.

٦- جاء قوله تعالى: » #Y‘ßÏ /ãøæ ä$J¡ 9$ÈÅeÁçR «

جواباً للأمر (استغفروا) ولم يأت جواب الأمر بصيغة (يغفر لكم) في مقابلة (استغفروا)، بل جاء بصيغة (يرسل) ترفقاً بهم ومراعاة لأحوالهم، وقد كان قوم نوح أهل فلاحة وزراعة، فلذلك وعدهم بالعوائد العاجلة التي هي أوقع في قلوبهم وأحب إليهم، إذ النفس مولعة بحب العاجل، خاصة وأ ـم قحطوا سنين طويلة، وأعقمت نساؤهم أربعين سنة، وذلك ليرغبوا في هذه العوائد العاجلة ويشاهدوا أثرها وبركتها، فالاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات(١)، كما أن المعصية سبب لخراب الديار بظهور أسباب العقاب الإلهي فيها، فقوم نوح لما كذبوه بعد تكرير الدعوة لهم عاقبهم الله تعالى، ثم وعدهم إن آمنوا بأن يرزقهم الخصب، ويدفع عنهم ما كانوا فيه، وذلك هو

(١) تفسير الخازن (٣٤٥/٤) وتفسير القرطبي (٣٠٢/١٨).

الموافق للحكمة؛ لأن الله تعالى يبتلي عباده بالخير والشر، ليرجعوا إليه وهو سبحانه العليم بما يصلح خلقه. فالله تعالى هو الرحيم بمخلوقاته، ورحمته وسعت كل شيء. فهؤلاء قوم نوح وهم كفار ومع شدتهم في كفرهم، فالله تعالى يعدهم بتحقيق ما يرغبون من الخصب ورغد الحياة إن هم تركوا الكفر وآمنوا بالله سبحانه، وإنه لمنهج كريم في التعامل مع المخالف وفي مخاطبته وإن كان كافراً يبينه الله تعالى في كتابه ليعيه المسلمون في كل عصر.

وقد جاء قول الله تعالى: Nîâƒ ←& #ãþrS @Jè‚ƒ `Br ¼

(١)» $VŠïmS #Yqãî ©$Ï‰Éƒ ©$ÌÏóGó„ ©ê¼ç¡øR

يدل على سعة رحمة الله تعالى بعباده، وفتح باب المغفرة أمامهم، ليستغفروه ويتوبوا إليه، وذلك من شأنه أن يطمع كل مذنبٍ تائبٍ في العفو والقبول، من ربه الرحيم الغفور.

كما يدل هذا القول الكريم على أن الله الغفور الرحيم يقبل عباده المستغفرين في كل حينٍ، ويغفر لهم، ويرحمهم متى ما جاءوا إليه تائبين، هكذا بلا قيد ولا شرط، ولا حجاب، ولا بواب، حيثما جاءوا تائبين

(١) سورة النساء : (١١٠).

مستغفرين، وجدوا الله غفوراً رحيماً[١].

فسبحان من شمل عباده بحلمه، وعفوه، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته. فمن أذنب منهم ذنباً، صغيراً كان أو كبيراً، ثم استغفَر الله فإنه يجد الله غفوراً رحيماً، ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر. قال عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه –: من قرأ هاتين الآيتين من سورة النساء، ثم استغفر غفر له: ﴿ ... ﴾[٢] ﴿ ... ﴾[٣].

وروى الطبريُّ أن عبدالله بن مغفل جاءته امرأة تسأله عن امرأة زنت، فحملت، فلما ولدت قتلت ولدها، فقال: ما لها؟ لها النار، فانصرفت المرأة السائلة وهي تبكي، فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿ ... ﴾

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب، المجلد الثاني، الجزء الخامس، ص (٧٥٥).
(٢) سورة النساء: (١١٠).
(٣) سورة النساء: (٦٤). وانظر: تفسير القرطبي (٣٨٠/٥).

فلما سمعت ذلك مسحت دموعها ثم مضت[٢].[١]

وجاء قول المصطفى r : **(ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يتوضأ، فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له)**[٣] بشرى لكل مذنب وأملاً في رحمة الله تعالى ومغفرته حتى لا ييأس مذنب من الرحمة، والمغفرة، ما دامت عوامل الندم، والرغبة في التوبة تتحرك في نفسه، فالله تعالى واسع المغفرة، ورحمته وسعت كل شيء.

قال الطبري في تفسيره: (واختلف أهل التأويل فيمن عُني بهذه الآية، فقال بعضهم: عُني بها الذين وصفهم الله بالخيانة بقوله: [٤].[٤] وقال آخرون: بل عُني بها الذين يجادلون عن الخائنين الذين قال لهم:

---

(١) سورة النساء : (١١٠).
(٢) تفسير الطبري (٢٧٣/٤) برقم (١٠٤٢٨).
(٣) سبق تخريج هذا الحديث.
(٤) سورة النساء : (١٠٧).

... (١)» $<‰9$ íqš s¸ ’Î ‹ãƒ Oçƒ‰_ ÄwÈd

والصواب من القول في ذلك عندنا أنه عني بها كل من عمل سوءاً أو ظلم نفسه، وإن كانت نزلت في أمر الخائنين، والمجادلين عنهم الذين ذكر الله أمرهم في الآيات قبلها)(٢).

والسوء عام يشمل كل ما يسيء به المذنب إلى نفسه، أو إلى غيره، وإنما خص وصف الذنب بالسوء؛ لأن فيه تعدية إلى الغير؛ لأنه يكون في الأكثر إيصالاً للضرر إلى الغير، وفُسر السوء بكل ما يأثم به الإنسان. والظلم هو ما دون الشرك من الذنوب. ويذهب الفخر الرازي في تفسيره(٣) إلى أن الآية تدل على حكمين؛ أحدهما: أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب: الكبائر والصغائر؛ لأن قوله تعالى: ¼ `Br /Jè@ Ó#ápS ¼ الآية، عمَ الكل. والحكم الثاني: أن ظاهر الآية (٤)» ¼çm¡ øR ÏNîâf يقتضي أن مجرد الاستغفار كافٍ، وقال بعضهم: إنه مقيد بالتوبة؛ لأنه لا

---

(١) سورة النساء : (١٠٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٧٢/٤).
(٣) تفسير الرازي، المجلد السادس، الجزء الحادي عشر، ص (٣٨).
(٤) سورة النساء : (١١٠).

ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب. وهذه الآية الكريمة تفتح باب الأمل في التوبة والعودة إلى الله تعالى واسعاً أمام المذنبين، وتسد الطريق على كل من يحاول أن يضع العراقيل أمام العباد في التوبة والرجوع إلى ربهم. وذلك يعني أنه لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يحول بين الله تعالى وبين عباده المذنبين، فهو جل وعلا – الرحيم بخلقه العليم بأمراضهم وذنوبهم، وهو القائل سبحانه: #ŠMÎz ¾íŠ$6ä É≥qçäÎ 7îhÎ 4".r ¼ /Ä#Ž»(١) – وقد يسَّر للمذنبين أسباب التوبة، وطلب المغفرة، فضلاً منه ورحمةً وإحساناً، ولعل هذا يدعونا إلى الحديث عن أهمية الرفق بالمذنبين وعدم احتقارهم.

---

(١) سورة الإسراء : (١٧).

أهمية الرفق بالمذنبين وعدم احتقارهم

إن بعض الناس قد طبعت نفوسهم على التشديد والتعقيد والتسلط، فتراهم أشداء على إخوا ـم المسلمين، وإذا ما اقترف أحد منهم ذنباً، عاملوه بانتقاصٍ واضح، ونبذوه، وهجروه، وتركوه، بدل أن يرحموه، ويترفقوا به، ولا يتركوه للشيطان، ولسان حالهم يقول: إن التوبة على أمثال هذا بعيدة!! وإنما ركبوا هذا المركب الخطير بسبب جهلهم بمقاصد الشرع، وما طبعوا عليه من الجفوة، والغلظة، والقسوة، والتعقيد، والتشديد. أماَ عَلِمَ هؤلاء أن الله تعالى يفرح بتوبة عبده أعظم من فرح الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الواسعة المهلكة بعد أنْ فقدها وأيس منها(١). وليس في أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح، ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح.

أمَا عَلِمَ هؤلاء أن الله تعالى يحب أن يتفضل على خلقه ((ويتم نعمه، ويريهم مواقع بره، وكرمه، فلمحبته الإفضال والإنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع، وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة، والباطنة، ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء، ويعفو عمن ظلم،

(١) إشارة للحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، حديث (٧) من حديث أنس بن مالك رقم (٢٧٤٧).

ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة، والأفعال الحميدة، وهو أولى بها منهم، وأحق، وكان له في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة، ما يبهر العقول، فسبحانه وبحمده، وحكى بعض العارفين أنه قال: طفت في ليلة مطيرة، شديدة الظلمة، وقد خلا الطواف، وطابت نفسي فوقفت عند الملتزم، ودعوت الله، فقلت: اللهم اعصمني حتى لا أعصيك، فهتف بي هاتف: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ قال: فبقيت ليلتي إلى الصباح أستغفر الله حياءً))(١).

إن كمال العباد في كمال توبتهم، وكلهم فقير إلى رحمة الله تعالى ومغفرته، وعفوه، والعاقل النابه من يرى ذلك الفقر جزءاً من مكوناته، وكيانه، ولا يرى لنفسه مزيةً على غيره من إخوانه المسلمين بل يهتف صباح مساء بلسانٍ صادق قائلاً: رب اغفر لي ولوالدَيْ وللمسلمين والمسلمات، وللمؤمنين والمؤمنات.

إن فتح باب الأمل أمام عباد الله المذنبين المستغفرين يدل على مسئولية

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢٨٧/١).

المجتمع المسلم تجاه الفرد المذنب، مسئولية تقوم على أساس عدم احتقار هذا الفرد، أو نبذه أو إسقاطه، وإنَّ شعور المجتمع بهذه المسئولية وممارسته لها من شأنه أن يقلل مظاهر الانحراف في الحياة، وذلك أن الفرد المذنب إذا أحس أن مجتمعه الإسلامي عامله بالرحمة، والرأفة، وأخذ بيده حتى اجتاز آثار ذنوبه، فإن ذلك عامل قوي في رجوع هذا الفرد إلى طريق الصلاح والإصلاح.

إن المجتمع الذي لا يفتح صدره لأبنائه العائدين إلى طريق التوبة بعد رحلةٍ عسيرةٍ في قارب الغواية والجهالة، ولا يحيطهم بالحب، والعناية والرحمة، ولا يفتح أمامهم أبواب الأمل في الصلاح والإصلاح، سيدفع الثمن غالياً لمواقفه تلك، وهو ثمن يتجدد دفعه مع تجدد الليالي والأيام. وتنعكس آثار ذلك على حياة المجتمع وحركته في عاجله وآجله.

ي العباد عن القنوط من رحمة الله

إن رحمة الله واسعة وسعت كل شيء، وهو جل جلاله واسع المغفرة، ومن فضله، وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته أنه ى عباده جميعاً عن القنوط من رحمته، ووعدهم بالمغفرة لذنوبهم. قال عز من

قائل: ﴿* ©ë ƒ»ë7$Š “ $Ç%ïïû & óŽèqŧ ã?# &Rã ŷÅĝŇ ẅ

?ø)Zäqŧ Ë ` §q÷ĵ$ ⅉ» ĵb$Ç© ƒøŷã$!%ÿq > dÏ‹è$ ĵR¼ç

dèq$%óŷãq$9Ïm ãÏÈÎÇ r&Ï•çþ ĵ<4 ‘ĥã ŇR&õĵ3qŧ 9ç¼

Ë ` %6©ë & b ƒÜ?‹ã Ň$%è‹#Ü ëŜ ẅ ẑÇ ŗr c š ÈÎÇ

$?Î‌ãþŧ &ñô ¡ | ` B$éR‘ÏA ĵøã N Ë ` Š/ Ë ` 6àN Ë ` %6©ë & b

ƒÜ‹› 6àN$%è‹#Ü /øGž r&ŗÓø ẅ @ã)ŷãø r c š﴾ (١).

وفي ظلال هذه الآيات الكريمة يحس المذنبون بمدى سعة رحمة ربهم التي وسعت كل شيء، حيث يناديهم ربهم بهذا النداء الحاني

---

(١) سورة الزمر : (٥٣ إلى ٥٥).

﴿ `Ï ¢qÏZø? ẅ ÏÎgÅ¡øR& #?ã ¢qèŽó & ûï‰Ïd$ " Ï$7è»f ﴾

﴿ «! $ Ïpqϧ ﴾

الآية، ((إ ا الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، وإ ا الدعوة للأوبة، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيا م ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصدٍ، ويأخذ عليهم كل طريق، ويجلب عليهم بخيله ورجله، وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث، ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واهٍ، وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده. وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك، ويوقعه في المعصية، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم، يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون، ويوسع له في الرحمة ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه

على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يقبل أو يستقبل، في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف ﴿ ûïÏ‰ô©Ï$ “ Ï$7Ïè»ƒ ÓÉ‹è * ﴾ ©!$#bÎ) «!$#ÏpHeqs§ `Ï ¨qÏÜZÏ9 ÏM ÏÎgÅ¡àÏR& #?ã ¨qÏÜó& ﴿ ãÏms9$#âqÝàó9$#âqÏ ¼çRÎ) $è<Ïid > qç/!$ÏÜÝóƒ ﴾ (١) وليس بينه

— وقد أسرف في المعصية، وولج في الذنب، وأبق عن الحمى، وشرد عن الطريق — وبين الرحمة الندية الرخية، وظلالها السمحة المحببة، ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة، التوبة وحدها، الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان ﴿ 4<Î ¨bÎ•Ïr& ﴾ ÏM ÏÎèÜ#<èÏ$ÏÏÜ b& ÈÏ6 `Ï ¼çÏ9 ¨qÏ3ÎÏ¹r& ÏÏÎ `Ï NÏÎøÎ) AÏRé$B `¡ôÏ& ¨bÎÏ?$r ÇÍÈ šc rÇZÎ

(١) سورة الزمر : (٥٣).

Ÿw ÓE&r ZGø/ U# <èøSNà6 <ïÙ b& è@% `B Nà6 îS

ðšc rèãâð﴾(١) الإنابة والإسلام، والعودة إلى أفياء الطاعة، وظلال الاستسلام هذا هو كل شيء، بلا طقوس، ولا مراسم، ولا حواجز، ولا وسطاء، ولا شفعاء، إنه حساب مباشر بين العبد والرب، وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق، ومن أراد الأوبة من الشاردين فليؤب، ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب، ومن أراد الاستسلام فليستسلم، وليأت ويدخل، فالباب مفتوح، والفيء والظل والندى والرخاء كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب))(٢).

ونحن إذا تأملنا ما ذكر في سبب نزول هذه الآيات الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها، لاتضحت في النفوس معاني ودلالات

وأبعاد مدى سعة رحمة الله تعالى بخلقه ومحبته تعالى للمغفرة لهم.

جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: ((أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً r

(١) سورة الزمر : (٥٤-٥٥).
(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٠٥٨/٥).

فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل:

﴿ bqèÐ Ïwr • z#ä $g»9Ï ‹ ÍìB šc qãèÏ Ïw ûïÍ ﴾

﴿ šc qè=Ï Ïwr ÈÍs ÏwÎ ¡ PSm ÓÉ S ÏZ9 ﴾[1]،

ونزل:

﴿ Ïw ÍÏgÅ¡R& #?ã ¨qèÓ & ûïÍ “ Í$7È»Ï @È * ﴾

﴿ ÞÎq§ `B ¨qÈZÏ? ﴾

﴿ ‹ ﴾[2].

وروى محمد بن إسحاق عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر (رضي الله عنهما) قال: لما اجتمعنا على الهجرة اتعدت (أي تواعدت) أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة، فقلنا: الموعد أضاة (غدير) بني غفار، وقلنا: من تأخر فقد حبس فليمض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا به قد فُتن، فافتتن، فكنا نقول

---

(١) سورة الفرقان : (٦٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الزمر، حديث (٤٨١٠)، وانظر: صحيح مسلم، حديث (١٢٢).

بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عز وجل

في كتابه: ﴿ * @ê ƒ»Š$7è “ ©$%ïïû & óŽèqŧ ã?# &Rğ ÅĝŇ ẅ

?Zäqŧ Ë` §qĦþ$ «ł ﴾ إلى قوله: ﴿ &ŷ§ Î' _gYO

B#Y “ ĵtGِ3ÉŽï úš ﴾(١) قال عمر: فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى

هشام، قال هشام: فلما قدمتْ عليَّ خرجت بها إلى ذي طوىً فقلت: اللهم فهمنيها، فعرفت أ ا نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله. ويصف القرطبي هذه الرواية بأ ا من أجلّ ما روي في سبب النزول(٢).

وقال ابن عباس وعطاء: نزلت في وحشي قاتل حمزة؛ لأنه ظن أن الله

---

(١) سورة الزمر : (٦٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢٦٧-٢٦٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/١٠٩، ١١٠)، والحديث رواه هكذا مختصراً الطبري في تفسيره (١١/١٥-١٦) برقم (٣٠١٨٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٦١): رواه البزار ورجاله ثقات. ورواه الحاكم في مستدركه (٢/٤٣٥) من هذا الوجه أيضاً، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي.

لا يقبل إسلامه، وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: أتى وحشي إلى النبي r فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله r : قد كنت أحب أن أراك على غير

جوارٍ فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله. قال: فإني أشركت بالله، وقتلت النفس التي حرم الله، وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله r حتى نزلت: ﴿ šc qãèϱ÷ƒ ŸwÎ ûïÏ%©!$# ª!$#PsŠm ÓÉ‹©9$# Š ÿ¼ã9$#bqèùÎôØ÷ƒ ŸwÎr •z#ä $g»9Ï« ‹Ï$ìB šc qçR“ƒ ŸwÎr ÈÏs%ø—Î ŸwÎ)(١)﴾ إلى آخر الآية. فتلاها عليه، فقال: أرى شرطاً فلعلّي لا أعمل صالحاً، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: ﴿ brßŠ $B ãÏÿøƒr ¾ÏmÎ/ 8ŽÎ7¨çb& ãÏÿøƒ ŸwÎ ©!$#bÎ) 7ÏÿºŒ `Jÿ

(١) سورة الفرقان : (٦٨).

„±$â ﴾[١] فدعا به فتلا عليه. قال: فلعلي ممن لا يشاء. أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت: ﴿ ƒ»è7$Š “ Ÿ%¼ûï & óžèqf# ãƒ? ﴾ فقال: نعم الآن لا أرى شرطاً، فأسلم.

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يرى أ ـا أرجى آية في كتاب الله تعالى[٢].

وإن ما تقدم يدل على أن مغفرة الله تعالى مبذولة لخلقه أجمعين معروضة عليهم، وأن عليهم أن يسعوا إليها، كفاراً ومسلمين، قال ابن كثير: ((هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر،

---

(١) سورة النساء : (٤٨، ١١٦).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢٦٨-٢٦٩).

ولا يصح حمل هذه الآية على غير التوبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه))(١).

وقال الإمام أحمد: ((حدثنا حسن وحجاج قالا: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو قبيل قال: سمعت أبا عبدالرحمن المقرئ، قال حجاج: عن أبي قبيل، حدثني أبو عبدالرحمن الحُبُلي، يقول: سمعت ثوبان – مولى رسول الله r يقول: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿ * ﴾ إلى آخر الآية. فقال رجل: يا رسول الله فمن أشرك؟ فسكت النبي r، ثم قال: ((ألا وَمَنْ أشرك)) ثلاث مرات(٢). قال ابن كثير: تفرد به أحمد(٣). قال الطبري في تفسيره: ((وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله تعالى ذكره بذلك

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٨).
(٢) المسند (٥/٢٧٥). وانظر: أطراف المسند لابن حجر (١/١٦٩).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٥٨). قلت: لم يتفرد به أحمد بل رواه الطبري في تفسيره (١١/١٦) برقم (٣٠١٨٧) من طريق زكريا بن يحيى بن أبي زائدة.

جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك لأن الله عمَّ بقوله: ﴿ ﴾ جميع المسرفين فلم يخصص مسرفاً دون مسرف، فإن قال قائل: يغفر الله الشرك؟ قيل: نعم إذا تاب منه المشرك))[١].

ويستدل ابن كثير بهذا الحديث وسواه من الأحاديث التي تطمع العباد في المغفرة على أن المراد بأن الله تعالى يغفر ذنوب عباده مع التوبة، ويقول رحمه الله: ((ولا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإن باب الرحمة والتوبة واسع. قال الله تعالى: ﴿ ﴾[٢]

وقال تعالى: ﴿ ﴾

---

(١) تفسير الطبري (٢/٢٣٠).
(٢) سورة التوبة : (١٠٤).

وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ (١) ﴾

وقال: ﴿ (٢) ﴾

ثم ﴿ (٣) ﴾

قال: ﴿

وقال: ﴿ (٤) ﴾

---

(١) سورة النساء : (١١٠).
(٢) سورة النساء : (١٤٥-١٤٦).
(٣) سورة المائدة : (٧٣).
(٤) سورة المائدة : (٧٤).

﴿ (١). قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. والآيات في هذا كثيرة جداً))(٢).

(وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله عز وجل: ﴿ ﴾ إلى آخر الآية. قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿ ﴾

(١) سورة البروج : (١٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٨).
(٣) سورة الزمر : (٥٣).

﴿ Ò<ïm§ Ö]q¥ãî ª! #r ¼çRrëÿÝóGó„r ﴾[١]، ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿ 4?ãF$ÑÆ‘ $B ﴾[٢] وقال: ﴿ Îöî ⇑9Ĵ ôB Nà6 9 ÆMõ¥ã $B " ﴾[٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه)[٤].

وقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : ((ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه)) جاء مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ >$? Ôê ﴾[٥] الآية. فالله تعالى إذا أراد بعبده خيراً يسَّر له سبيل التوبة وهداه كما في قصة ذلك الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين رقبة

---

(١) سورة المائدة : (٧٤).
(٢) سورة النازعات: (٢٤).
(٣) سورة القصص : (٣٨).
(٤) تفسير ابن كثير (٥٩/٤).
(٥) سورة التوبة : (١١٨).

في بني إسرائيل، ثم تاب فتاب الله عليه(١). والعبرة بالخواتيم، والعمل لا بد منه، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له.

قال القرطبي في تفسيره: ((وحُكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن، فقال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿ 4?ã @Jèƒ @@à2 @è﴾ ﴿ ¾ïF=Ï$© ﴾(٢) فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران.

وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ ìï%ñ ÇÈ ÉŠîèøSíƒíèøS< $` Ï É»GÅøSø@ƒí\? ÇÈ Ïm

ïw ÉqÏG9$ " Ï É$)èøS‰ƒï‰© É qG9$Ø@Î$r É/¤9$

(١) سبق تخريجه.
(٢) سورة الإسراء : (٨٤).

﴿ ... ﴾[١] قدم غفران الذنوب على قبول التوبة. وفي هذا إشارة للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان – رضي الله عنه –: قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر آيةً أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿ ... ﴾[٢]. وقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿ ... ﴾ ﴿ ... ﴾[٣].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن أكثر آية في القرآن فرجاً في

---

(١) سورة غافر : (١ إلى ٣).
(٢) سورة الحجر : (٤٩).
(٣) تفسير القرطبي (١٠/٣٢٢-٣٢٣)، والآية في سورة الزمر : (٥٣).

سورة الغرف، أي الزمر(١).

وقد جاء الخطاب الكريم في قول الله تعالى: ﴿ * È@ƒ» ÉïÖ7$S "

الآية. مبتدءاً بالنداء للعباد (٢)﴿ ... r&ÈqæÃ#? ãÅîOùR& ﴾

وذلك مؤذن بأن ما بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة، والخطاب بعنوان (عبادي) مراد به المشركون ابتداءً بدليل قوله تعالى – فيما بعد – وقوله (٣)﴿ Ïr&ÈqÏ9 ¼çÀ6% Ïf&Ù<ïÙ aÅ<è#ÏÜ ﴾

عز وجل:

﴿ r&ÈqÏ3ÎÏ% ÏÀ6% 4?/ ﴾ وقوله سبحانه: (٤)﴿ ÏÎ, »¡ 9$S ÏÀ9 ÅZÏ br&ÎÏ ﴾

ÉÉ Ï MÏ3ù ÓÉf#Ï 7ÏÏ `ÏÆ Ï MÏ NÏ9GÏ$ $kÍ MÏ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٩).
(٢) سورة الزمر : (٥٣).
(٣) سورة الزمر : (٥٤).
(٤) سورة الزمر : (٥٦).

$#Ÿ3»ÿÍïû ﴾(١)فهـــــــذا

الخطاب جرى على غير الغالب في مثله في عادة القرآن عند ذكر (عبادي) بالإضافة إلى ضمير المتكلم تعالى))(٢)، ((فالخطاب بقوله (تعالى): ﴿ ƒ»ËÏ7$$Š " ûïÏ%©!$# (#qèùuó & #?ã Nö Îgƒ Å¡àÿRr& ... ﴾(٣) تمهيد بإجمال يأتي بيانه في الآيات بعده من قوله (سبحانه): ﴿ r&Ï»ç(#þqç7 4 ' n<Î) öNä3În/u ﴾(٤) وبعد هذا فعموم (عبادي) وعموم صلة ﴿ûïÏ%©!$# (#qèùuó & ﴾ يشمل أهل المعاصي من المسلمين وإن كان المقصود الأصلي من الخطاب: المشركين على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعها))(٥)، و((الخطاب هنا للذين أسرفوا، وفي

(١) سورة الزمر: (٥٩).
(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٤٠، ٤١).
(٣) سورة الزمر: (٥٣).
(٤) سورة الزمر: (٥٤).
(٥) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٤٠، ٤١).

مقدمتهم المشركون، وكلهم مَظِنَّةُ تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم فكأن إثبات (ياء) المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلم تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماءً إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده))(١).

وظواهر نصوص هذه الآيات وغيرها في القرآن الكريم تدل على أن الذنوب كلها يغفرها الله إذا تيب منها. قال ابن تيمية – رحمه الله – : ((وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة: الكفر والشرك وغيرهما يغفرها لمن تاب منها، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب تعالى بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة))(٢) والعموم في قوله تعالى: ﴿ bÎ

$è‹Ïd > qç%!$ayø ©$ ﴾ بمعنى الخصوص، لأن الشرك لا يدخل في الآية إذا لم يتب منه، والآية في المعاصي مقيدة بالمشيئة كما قال ابن عطية في تفسيره))(٣).

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤/٤٠، ٤١).
(٢) تقدم هذا القول وتخريجه.
(٣) تفسير ابن عطية (١٢/٥٥٣).

و(عن أسماء قالت: سمعت رسول الله r يقرأ: ﴿ * È@ø)ƒ»7$S ” ﴾ ولا يبالي ﴿ ûïÍ&qèÓ#ãR&ÅgÎûwÏZøÄ?ÈqÏ`Bqè‹ÏHpÏ$Sqî ﴾[1] ﴿ ÈqÏd>ÏÈ$ ﴾ وفي قراءة ابن مسعود: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء).

قال أبو جعفر النحاس: وهاتان القراءتان على التفسير أي: يغفر الله لمن يشاء وقد عرَّف الله عز وجل من شاء أن يغفر له، وهو التائب، أو من عمل صغيرة، ولم تكن له كبيرة، ودلَّ على أنه يريد التائب ما بعده ﴿ ÈqÏ4‹Ïm÷&r ﴾[2] فالتائب مغفور له ذنوبه جميعاً، يدل على ذلك ﴿ >$?`Jï Ïyó9'ÏÎr ﴾[3] فهذا لا إشكال فيه)[4].

وثمة سؤال هام يفرض نفسه في هذا المقام، وهو: هل توبة المذنب لا

---

(١) سورة الزمر : (٥٣).
(٢) سورة الزمر : (٥٤).
(٣) سورة طه : (٨٢).
(٤) تفسير القرطبي (٢٦٩/١٥).

بد منها لمغفرة الذنب؟ إن ظواهر النصوص القرآنية الكريمة في الموضوع تدل على أن التوبة لا بد منها في حصول المغفرة، قال ابن كثير في تفسيره: ((ولا يصح حمل هذه الآية على غير التوبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه))(١)، ويبين ابن تيمية في التفسير الكبير: أن هذه الآية في حق التائبين، فيقول رحمه الله: ((فإن قيل: قوله: ﴿ ©!$# bÎ) ﴾ $è<ïd > qè%!$ïÿøf ﴾(٢) معه عموم على وجه الإخبار، فدل على أن الله يغفر كل ذنب، ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة، والتواتر، والقرآن، والإجماع، إذ كان الله أهلك أمماً كثيرةً بذنوبها، ومن هذه الأمة من عُذب بذنوبه إما قدراً وإما شرعاً، في الدنيا قبل الآخرة. وقد قال تعالى: ﴿ B` @Jèf ﴾ ¾ïnÎ "ø#a #ÈqpS ﴾(٣) وقال: ﴿ @Jèf `Br ÇÈ ¼çnf #•øz ÞSE A$)#B @Jèf `Jù

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٨).
(٢) سورة الزمر : (٥٣).
(٣) سورة النساء : (١٢٣).

﴿ ¼ç•ƒ #▼© ρ$Œ A$)₩Β ﴾(١) فهذا يقتضي أن هذه الآية ليست على ظاهرها))(٢).

وكلامه رحمه الله يدل على أن العموم لمغفرة الذنوب في الآية عموم بمعنى الخصوص، وذلك ما سبقت الإشارة إليه من كلام الإمامين: ابن عطية، والقرطبي رحمهما الله، قال صاحب التحرير والتنوير – رحمه الله –: ((وهذه المغفرة تقتضي أسباباً أجملت هنا وفُصِّلت في دلائل أخرى في الكتاب والسنة منها قوله تعالى: ﴿ @ïiår `B#är >$? `Jj Ïyó9 'ûr ¹ «!$# 3" ‰Fd$$Ê$[s ﴾(٣) وتلك الدلائل يجمعها أن للغفران أسباباً تطرأ على المذنب، ولولا ذلك لكانت المؤاخذة بالذنوب عبثاً ينزه عنه الحكيم تعالى، كيف وقد سماها ذنوباً وتوعد عليها فكان قوله تعالى: ﴿ ©!$# ‘ ﴾ دعوة إلى تطلب أسباب هذه المغفرة، فإذا طلبها

---

(١) سورة الزلزلة : (٧-٨).

(٢) التفسير الكبير لابن تيمية (٦/٤٣-٤٤) تحقيق وتعليق د/ عبدالرحمن عميرة.

(٣) سورة طه : (٨٢).

المذنب عرف تفصيلها)) (١).

وقول الله تعالى: ﴿ #?ã ‡qèŽó & ûïÏ‰Gs " Ïš$7Ïè»ƒ @Ïè * ﴾

> qç%!s$ëÿó‡ @!$bÎ) «! $pHeqs ` Ï‡qëÜZø? ÿw ÚÎgÅÿãR&

﴿ ãÏms9$$âqÿó¢$qè ¼çRÎ) $è<ïd (٢) فيه بيان لسعة رحمة الله تعالى ومغفرته، وذلك بالنهي عن اليأس والقنوط من رحمة الله، فمهما عظمت الذنوب، وكثرت، فمغفرة الله تعالى أوسع من ذنوب العباد، وباب التوبة مفتوح لهم جميعاً، فعليهم أن يطلبوا المغفرة بتحصيل أسبابها، وعلى ذلك فلا يحل لأحدٍ أن يقنِّط العباد من رحمة ربهم ومغفرته، ولا يجوز في ذات الوقت

لعاقل أن يقنط من رحمة الله تعالى مهما كثرت ذنوبه، فإن أقصى ما يطمح إليه الشيطان اللعين أن يقنط المسلم من رحمة الله ومغفرته، فإذا كانت رحمة الله تعالى قد وسعت وحشياً قاتل حمزة– رضي الله عنه – عم رسول الله r ، بعد أن تاب من كفره، فتاب الله عليه، فكيف تضيق هذه الرحمة الواسعة على مسلمٍ عاصٍ يريد التوبة؟ وماذا تشكل ذنوب

(١) تفسير التحرير والتنوير (٤٢/٢٤).
(٢) سورة الزمر : (٥٣).

العباد جميعاً في جانب هذه الرحمة العظيمة الواسعة؟

قال ابن تيمية – رحمه الله– : ((فلا يحل لأحدٍ أن يقنط من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه ولا أن يقنط الناس من رحمة الله. قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرؤهم على معاصي الله. والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته، ولا يغفر ذنوبه، وإما بأن يقول: نفْسُه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب معها، والشيطان قد استحوذ عليها فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له، وهذا يعتري كثيراً من الناس، والقنوط يحصل بهذا تارة، وبهذا تارةً، فالأول كالعابد الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله، وكمَّل به مائةً، ثم دُلَّ على عالم فأتاه فسأله وأفتاه بأن الله يقبل توبته، والحديث في الصحيحين(١)، والثاني كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة، ويقال له: لها شروط كثيرة يتعذر فعلها فييأس من أن يتوب))(٢). ورحم الله كل من فقه في دين الله ولم يقنط العباد من رحمة ربهم ولم يجرئهم على معاصيه.

قال الفخر الرازي في تفسيره: ((اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة

---

(١) سبقت الإشارة إليه وتخريجه.

(٢) التفسير الكبير لابن تيمية (٦/٤١-٤٢).

من وجوه:

الأول: أنه سمى المذنب بالعبد، والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة، واللائق بالرحيم الكريم إضافة الخير والرحمة على المسكين المحتاج.

الثاني: أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال: ﴿ ßÚ$7Ëf» " ﴾ ﴿ #qèŽó & ûïÏ%©$$ ﴾، وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ #qèŽó & ﴾ ﴿ NÎgÅ¡àR& #?ã ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم، فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم، ولا حاجة إلى إلحاق ضررٍ آخر بهم.

الرابع: أنه قال: ﴿ #qëÜZ)? ÏW ﴾ ﴿ «! $Ïp¨Hq§ `Ï #qëÜZ)? ÏW ﴾ اهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء. والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم.

الخامس: أنه تعالى قال أولاً: ﴿ ßÚ$7Ëf» " ﴾ وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتي، لكنه ترك هذا اللفظ وقال: ﴿ #qëÜZ)? ÏW ﴾

﴿ «! $pκÏΗxq§ `ΒÏ ﴾ لأن الاسم الكريم (الله) أعظم أسماء الله وأجلها، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل.

السادس: أنه لما قال: ﴿ «! $pκÏΗxq§ `ΒÏ (qèδUZø? ŵw ﴾ كان الواجب أن يقول: إنه يغفر الذنوب جميعاً. ولكنه لم يقل ذلك، بل أعاد اسم (الله) وقرن به لفظة (إن) المفيدة لأعظم وجوه التأكيد، وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد بالرحمة.

السابع: أنه لو قال: ﴿ >qè%!$ÏèÏyø ﴾ لكان المقصود حاصلاً، لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد، فقال: ﴿ $è<Ïd ﴾، وهذا أيضاً من المؤكدات.

الثامن: أنه وصف نفسه بكونه غفوراً، ولفظ الغفور يفيد المبالغة.

التاسع: أنه وصف نفسه بكونه رحيماً، والرحمة تفيد فائدة المغفرة، فكان قوله: ﴿ âqèyó$ qè ¼çRÎ ﴾ إشارة إلى إزالة موجبات العقاب، وقوله: ﴿ ÏäïmS$ ﴾ إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة

والثواب.

العاشر: أن قوله: ﴿qèd ¼çR) $è‹ïd >qç%Hä$ayø/ @$b)﴾

﴿ãïms9$#âqyó#$﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو، وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران والرحمة، فهذه الوجوه العشرة مجموعة في هذه الآية هي بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ونسأل الله تعالى الفوز بها، والنجاة من العقاب بفضله ورحمته))(١).

لقد تبين مما أوردناه فيما سبق حول هذه الآية الكريمة فرحُ علماء سلفنا الصالح بها، واهتمامهم بتفسيرها وبيان ما حوته من مقاصد، وما اشتملت عليه من الخيرات والعطايا والآمال الواسعة في حصول الرحمة والمغفرة للمذنبين التائبين، وذلك عطاء الله تعالى لأمة محمد r وهو عطاء ممدود ما امتد الزمان بالعباد حتى تشرق الشمس من مغربها.

إن اهتمام هؤلاء العلماء بهذه الآية يدل على فضلهم وعلمهم وحبهم العميق لكل ما يقرب العباد من ربهم، وكراهيتهم لكل أمر يبعد العباد عن ربهم، فجاءت عباراتهم في إطماع العباد في مغفرة ربهم وفتح باب الأمل

(١) تفسير الرازي، المجلد (١٤)، الجزء (٢٧) ص (٣-٤).

أمامهم جميلة ندية وضيئة تبدد سحب اليأس والقنوط، دالة على سعة علمهم، وعمق نظرتهم، وسعة أفقهم، فرضي الله عنهم ورحمهم رحمةً واسعة.

فوائد وثمرات الاستغفار

إن فوائد وآثار وخيرات وثمرات الاستغفار في القرآن الكريم كثيرة ولا يمكن حصرها، والكلام في هذه الفوائد منطلقه النظر، والتأمل في النصوص القرآنية، وهو ميدان فسيح قد تختلف فيه وسائل الاستنباط والاستدلال، والله تعالى يفتح بما شاء على من شاء من عباده، وسنورد بعضها فيما يلي:

أولاً: الاستغفار من العبد تقابله التوبة والرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى، وعلى العبد المذنب أن يسعى نحو ربه بالاستغفار لينال التوبة والرحمة منه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فهؤلاء المنافقون احتكموا إلى الطاغوت فظلموا بذلك أنفسهم، ويبين القرآن الكريم أ ـم مع ذلك لو احتكموا إلى رسول الله r —وفي ذلك احتكام إلى الله تعالى — واستغفروا الله تعالى من ذلك

(١) سورة النساء : (٦٤).

الظلم، واستغفر لهم الرسول r لتاب الله عليهم ورحمهم، فإذا كان ذلك في حق هؤلاء المنافقين، فهو في حق عصاة المسلمين أوجب وألزم، وإنما قرن استغفار هؤلاء المنافقين باستغفار رسول الله r ؛ لأن ذنبهم لم يكن ظلماً لأنفسهم فقط لم يتعد شيء منه إلى الرسول r فيكفي فيه توبتهم، بل تعدى إلى إيذاء الرسول r من حيث إنه رسول، له وحده الحق في الحكم بين المؤمنين به، فكان لا بد في توبتهم وندمهم على ما صدر منهم أن يظهروا ذلك للرسول r ليصفح عنهم فيما اعتدوا به على حقه، ويدعو الله تعالى أن يغفر لهم إعراضهم عن حكمه. وإذا كان ذلك الحكم خاصاً بحياة الرسول r ، فإنه لا يفعل مثله بعد وفاته r ، بل يُكتفى في الذنب بتوبة العبد المذنب واستغفاره حيث كان والإخلاص لله تعالى. ومما يقارب هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ ¼ç¡ ÿøR ÑÎâƒ r& #äþr' @Jèƒ `Br

.(١)﴾ $VŠïmS#Yqèàî ©Ï‰Ëƒ ©ÏÙÿóGó„ ©ê

ثانياً: الاستغفار يجلب رحمة الله تعالى وذلك مدلول عليه بقول الله سبحانه: ﴿ @6% þ¥ñ¡ 9Ï bqèÉèGó© Oÿ ÉÇó)»ƒ A$%

(١) سورة النساء : (١١٠).

Nàa6 =è9 ©$ šc ræÿýØFó© Ÿwö9 þZ¡ s¢¢S

﴿šc qßmœÊ﴾[١] لأن الاستغفار المعبر عن الندم الصادق هو خلع لرداء المعصية، واستبداله برداء الإنابة والتوبة، وذلك بداية الدخول في ساحة الرحمة والغفران، فالله تعالى يرحم عباده النادمين المستغفرين، وإذا كان المخاطبون في هذه الآية قوم صالح فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثالثاً: الاستغفار سياج واقٍ وأمان من عذاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ bræÿýØGó„ Nèr NßÉèÅ ª!$šc %. $Br ﴾[٢]. وإذا كانت هذه الآية في مشركي قريش فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقد روى الترمذي من حديث أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله r: (أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي: ﴿ ª!$šc %Ÿ2 $Br

Nèr NßÉèÅ ª!$šc %. $Br NÍŽü MR&r NßÉèä

---

(١) سورة النمل : (٤٦).
(٢) سورة الأنفال : (٣٣).

„ brèÝØGó ﴾[١] فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: ((ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبدالله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله r قال: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني. قال ابن كثير: ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه))[٣].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين، لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم. فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم قوله: ﴿ $Br šc %Ÿ2

---

(١) سورة الأنفال : (٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٩) وانظر: سنن الترمذي برقم (٣٠٨٢) وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٥٠) وانظر: المسند (٣/٢٩، ٤١)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي. انظر: المستدرك (٤/٢٦١).

Nèr NG/Fèa ª! $šc %. $Br NÍŽÜ MR&r NG/Fèa ª! $

brëÿóGó„ ﴾(١).

ونقل ابن كثير في تفسيره عن الإمام أحمد ما روي عن فضالة بن عبيد عن النبي r أنه قال: ((**العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل**))(٢).

قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، فيقول النبي r: ((قد قد)) ويقولون: لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، ويقولون: غفرانك، غفرانك(٣)، فأنزل الله: ﴿ NG/Fèa ª! $šc %Ÿ2 $Br

brëÿóGó„ Nèr NG/Fèa ª! $šc %. $Br NÍŽÜ MR&r

﴾(٤) قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : كان فيهم أمانان: النبي r

---

(١) سورة الأنفال : (٣٣).
(٢) تفسير ابن كثير : (٥٠/٤) وانظر: المسند (٢٠/٦).
(٣) تفسير ابن كثير (٤٨/٤) وانظر: تفسير الطبري (١٥١/١١).
(٤) سورة الأنفال : (٣٣).

والاستغفار، فذهب النبي r وبقي الاستغفار(١).

روى الشيخان من حديث أنسٍ رضي الله عنه أن أبا جهل قال:

﴿ öÜÜø'ù 8Ÿ‰Zöã ôÏB ¨, s9ø$#qè=ä #‹»d šc %. bÎ) ©!$# ﴾

﴿ ÖŠÏ% A#‹èÏ $YÜø$#r& ä‹Ï‹¡9$# `ÏB ©!$# fÏm $Zßãø ﴾(٢)

فنزلت: ﴿ $Br& ÏNÍŽÜ MR&r ÏNG/Éèäø ª!$šc %Ÿ2 $Br& ﴾

﴿ xv& ÓG9 $Br& ÇÌÈ brãÏÜGó„ ÏNèr ÏNG/Éèäø ª!$šc %. ﴾

﴿ Q#•s9ø$Ÿ‰Éó J9ø$Çã šc r‰YÁƒ ÏNèr ª!$ÏNG/Éèäø ﴾(٣) الآية.

روى ابن جرير من طريق يزيد بن رومان، ومحمد بن قيس: أنهم قالوا ذلك، ثم لما أمسوا وندموا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله:

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٨) وانظر: تفسير الطبري (١١/١٥١).

(٢) سورة الأنفال : (٣٢).

(٣) سورة الأنفال : (٣٣، ٣٤) وانظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٦٤٩) ومسلم، كتاب صفات المنافقين (٢٧٩٦).

﴿ brëÿøGó„ Nèr NG/Ëèª!$šc %. $Br ﴾[١] فعلى

المسلم أن يتبصر أهمية الاستغفار وشأنه وأثره في رفع العذاب، ودفع النقم.

قال ابن تيمية رحمه الله: (فإن العذاب إنما يكون على الذنوب، والاستغفار يوجب مغفرة الذنوب التي هي سبب الذنوب فيندفع العذاب كما قال تعالى: ﴿ `Ï NM=Ä è$ ¼çÇ»ƒ#ä NMJÅôéë=»GÏ •9# ﴾

çZÏB /ä9 ÓÍ_Ñ ©$ŠvÎ (ÿ‰çè? xv& ÇÈ ÄÎz ÆŠÅm ÷ä©

ïøÎ) (þçqè$ê ¼ä/‘ (rëÿøFº$ Ès& ÇÈ ž•Ï±0r ÖÉR

“ Ï@äÏ%s3ø‘ ¼w¡B @_&#<Î) $Z¡m $è»GB Nä3èÏJø

﴿ ¼ã&ÙÙ @ÙÙ ﴾[٢] فبين سبحانه أ ـم إذا فعلوا ذلك متعوا متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ثم إن كان لهم فضل أوتوا الفضل)[٣]. ويرى ابن تيمية رحمه الله أن العذاب الذي يدفعه الاستغفار يعم العذاب السماوي ويعم

---

(١) سورة الأنفال : (٣٣). وانظر: تفسير الطبري (١١/١٥١).
(٢) سورة هود: (١ إلى ٣).
(٣) التفسير الكبير لابن تيمية (٤/٣٤٠).

ما يكون من العباد وذلك أن الجميع قد سماه الله عذاباً[١]، والعذاب الذي يدفع بالاستغفار: الفتن، وتفرق الأمة شيعاً وإذاقة بعضها بأس بعض كما قرر ذلك الإمام ابن تيمية في تفسيره[٢] فالعذاب بأنواعه كلها ظاهراً وباطناً في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة يندفع بالاستغفار.

رابعاً: لما كان فضل الاستغفار عظيماً وأثره كبيراً، وخيره عميماً في الدنيا والآخرة، جعله الله تعالى من صفات المؤمنين، دليلاً على أن الاستغفار رفيقهم على درب طاعتهم لربهم، قال عز وجل: ﴿* r ™$ãí(þbî<4 gÊéóãæ_Y¾ r ÏNº«q»J¡¡9$$ ÏNöF{$# ÞÚ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ÏNèdr ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ ÏNèdr /qçRÎ) $YB#ä $YZ9 ÏÏ‰ôÜ¯Ò $Z¼r $Y ﴾

(١) نفس المصدر.
(٢) التفسير الكبير (٣٤٣/٤).
(٣) سورة آل عمران: (١٣٣ إلى ١٣٥).

šú ü‰»Á9$ ûïÎÉÁ9$ ÇÏÈ í$Z9$ >#‹ã

šú ïÌÝóGó3$ šú üÉÝ3$ šú üÏÏ»)$

brãÝóGó„ìè í$tãÏ$r ﴿ (١) وقال جل وعز: ﴿ í$sÒÏ$ ﴾ (٢) فهم لا يغفلون عنه، ودليلاً على أن ترك الاستغفار أو إهماله ليس من شأن المؤمنين، فالمؤمن يحب الاستغفار ويحفل به، يحبه وهو يردده بقلبه ولسانه، في جنبات الليل والنهار، في السر والجهار، ويحبه من إخوانه الآخرين، فهو يحب منهم

الدعاء بالمغفرة، بأن يستغفروا الله تعالى له. والمؤمنون يستغفر بعضهم لبعض، وإذا طلب الاستغفار من المؤمن لأخيه المؤمن بذله. قال تعالى: ﴿ ‰ (qã

A$% ÇÐÈ ûüÏÜ»z $Zä $R) $Z/qçè $Z9 ÝóGÒ$ R/'»ƒ

ÐŠÏms9$ âqàó3$ qè ¼çR) þÎt ÏNa9 ÝóGÒ& š’ ô™

(١) سورة آل عمران: (١٦-١٧).
(٢) سورة الذاريات : (١٨).

﴾(١) والرسول يستغفر للمؤمنين والمؤمنات. قال سبحانه: ﴿ Ó=æ$Ìu

ûüZBs=Btöïr š• ÎPR%Î ëöyóGó™$# ª!$# žw) m»9) Iw ¼çR&

ÏM»YÏBs=ßJø9$#r ﴾(٢) الآية، فاللهم افتح بصيرتنا على الاستغفار وخيراته،

وآثاره، واجعلنا من عبادك المستغفرين.

وهكذا يتضح أنَّ العلاقة بين المؤمنين والاستغفار علاقة وطيدة، وإذا كان المؤمنون يستغفر بعضهم لبعض، والرسول r يستغفر للمذنبين من أمته، فإن ذلك كله وسواه يدل على شرف الاستغفار وشأنه وأثره، وأنه ما تركه إلا هالك ميت بدائه، كما يدل على أن المنافقين — وكما بيَّن القرآن الكريم — لا يستغفرون، ولا يحبون أن يستغفر لهم أحدٌ ولو كان رسول الله r ، وذلك دليل بيِّن على استحكام الداء فيهم وأنه لا أمل في شفائهم منه. قال تعالى: ﴿ Ör ÎŒ#) Ÿ<Ï% öNçlm; (#öqs9$è? ö(q

br‰Ÿ ƒ öNßgG¡&‘r Lèä™râ öNåk§9 «!$# Aqß™‘ öNä3s9 ëöyóGó„

(١) سورة يوسف : (٩٧-٩٨).
(٢) سورة محمد : (٤٩).

brٌ؟ÉGóB Nèdr ﴾(١) وذلك دليل كفرهم. ولذلك فإن المغفرة محجوبة عن هؤلاء المنافقين الذين سبق في علم الله تعالى أ ـم لن يتوبوا من نفاقهم، وأ ـم سيموتون على ذلك. قال الله تعالى: ﴿ ‎$ÖGÒyϑ öΝçλ °&

ª! $•ÿϑ` =ù ©S öüèÒ™ Νçλ ϑÿó Gó@ bÎ) Νçλ ϑÿó Gó@ ŵ

" ‰öŵ ª! $ ¾&Î qß 'r « $/ (rãy Ÿ2 Νå'Î 7 9 Œ Νçλ

Ôûüß æ ã#q™ ﴾ وقال سبحانه: ﴿(٢) ûüÉ Å»ÿ Ø$ Pöq)ø$

Νçλ ª! $•ÿϑ` 9 Νçλ ϑÿó Gó@ Νö9 Pr& Ôß9 Nϑÿó G™&

﴾(٣) الآية فالعلاقة بين المؤمنين علاقة أساسها أخوة الإيمان بالله تعالى، فالمؤمن يستغفر لأخيه المؤمن بظاهر الغيب، ولكنه منهيٌّ عن أن يستغفر لمن كفر بالله ولو كان من أقرب الناس إليه إذا مات على كفره، وذلك يدل عليه

---

(١) سورة المنافقون : (٥).
(٢) سورة التوبة : (٨٠).
(٣) سورة المنافقون : (٦).

قول الله تعالى: ﴿ b& #(þ#ä šú ï‰(#r ÆÉ=ï šc %. $B .`B 2† 1ëè 'íré#(þ%Y2 ö9r ûüÅ2 Îô3tï #(réïÓG6„ ﴾ ÉŠÅgø$Ü»s9 &ÏÅ& ÏÇ šú ü7? $B ï‰è/ ﴿(١)، ولم يكن استغفار إبراهيم – عليه السلام – لأبيه إلا بناءً على وعده له بذلك. قال تعالى: ﴿ ¼çR) þî 79 éïÓG™' 7øã N»™ A$% ﴾ : وقال جل وعلا: ﴿(٢) ﴾ $#ïm 'Î šc %. šc %. $Br ç$f) $d‰ãr ç‰ãöB `ã ïvÎ ïŠ7Ç OŠÏ°•9 â$ÓÏ™$ îºrV OŠÏ°•9 bÎ çZB &Š9? º! A%ã ¼çR& ÓÏ ûü7? $#=ù ﴾ ÒŠîm والقرآن الكريم يبين أن تعنت المشركين وصلفهم منعهم من ﴿(٣) الإيمان بالله تعالى واستغفاره بالتوبة إليه، وقد جاءتهم البينات الواضحة

---

(١) سورة براءة : (١١٣).
(٢) سورة مريم : (٤٧).
(٣) سورة التوبة : (١١٤).

والدلالات الظاهرة. قال تعالى: ﴿ ... ﴾

... وعنادهم جعلهم يطلبون (١)

أحد أمرين:

إما عذاب الاستئصال بنحو قولهم: ﴿ ... ﴾

... (٢).

وإما أن يأتيهم أنواع العذاب وذلك بنحو قولهم: ﴿ ... ﴾ (٣) الآية.

خامساً: ولشأن الاستغفار وفائدته، وشرفه، ومكانته عند الله تعالى

---

(١) سورة الكهف : (٥٥).
(٢) سورة الأنفال : (٣٢).
(٣) سورة العنكبوت : (٢٩).

فقد جعله تعالى من بين مهام ملائكته الكرام الموكلين بحمل العرش. قال تعالى: ﴿ bqßSÎm¯ ç¼çq9öm ôBr ¸ öè×s$ bqè=Ïtøt ûïÏ%©!$
(qãZB#ä ûïÏ%©#Ï9 brãÏÿøótGó¡o ¾ÏmÎ/ bqãZÏBs×ãr öNÍkÍh5u' ÏôJpt¿2
﴾(١) الآية. وذلك دليل على شرف الاستغفار، وأثره ومكانته عند الله تعالى، وعلى شأن المؤمن وشرفه عند الله تعالى. قال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى، فلما بلغت: ﴿ brãÏÿøótGó¡o
(qãZB#ä ûïÏ%©#Ï9 ﴾ بكى، ثم قال: يا خلف، ما أكرم المؤمن على الله، نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له. وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها، فما في العالم جنة أرجى منها، إن ملكاً واحداً لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين؟ قال مطرف بن عبدالله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين، وتلا هذه الآية(٢).

وهذه الآية الكريمة بشارة لكل مؤمن، فهي تحمل له من الخير والفضل

(١) سورة غافر : (٧).
(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢٩٥).

ما يجعله مستعلياً بقوة إيمانه على ما يلقاه من صعاب في هذه الحياة، فأشرف طبقةٍ في الملائكة، وأكرمها عند الله تعالى، الحاملون لعرشه جل وعلا يحبون المؤمن أينما كان موقعه في هذه الدنيا- وإن أنكره بعض أهلها أو تنكروا له – ويذكرونه في الملأ الأعلى بالاستغفار له، والدعاء له ولمن صلح من آبائه وزوجاته، وذريته، بالوقاية من السيئات، ودخول الجنة، وإن نسيه أهل دنياه أو بعضهم، فأيَّةُ كرامة هذه؟ وأي عزٍّ، هذا الذي يكرم به المؤمن ويعز؟ فالحمد لله كثيراً على فضله وعطائه لعباده المؤمنين، فهذا الاستغفار من هؤلاء الملائكة الكرام دليل وتأكيد على الصلة الإيمانية بينهم وبين المؤمنين، ودليل على أن المؤمنين في ذاكرة الملائكة الحاملين لعرش الرحمن جل جلاله، وذلك أمر من شأنه أن يحمل المؤمن على استشعار قيمته، ومكانته عند الله تعالى.

قال سعيد بن جبير: يدخل الرجل الجنة، فيقول: يا رب أين أبي، وجدي، وأمي؟ وأين ولدي وولد ولدي؟ وأين زوجاتي؟ فيقال: إ ـم لم يعملوا كعملك، فيقول: يا رب كنت أعمل لي ولهم، فيقال: أدخلوهم الجنة. ثم تلا: ﴿ ¼ç9öm ôBr ¸ ëè%$bqèÜtr ûïÏ©$ ﴾ إلى قوله:

قال (١) ﴿ ôÏiÏ»ƒhÉr ׊gÅ°r׊r ׊gÍ$/#ä ôÏB x=¹ `Br ﴾

القرطبي: ((ويقرب من هذه الآية قوله: ﴿ ׊æè7?$r (qàB#ä ûïÏ‰ÏG$r ﴾ والقرآن الكريم يبين (٢)((﴿ ׊æƒhÉ ׊Í $Zøtø& ?»JƒÎ/ Næƒhɠ ﴾)) أن الولاية معقودة بين الملائكة والمؤمنين في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿ Æ”\G? (qÃ»)FÏ$ ׊É ¡$ $Yš‘ (qæ% šú ïÏ‰Ï$ bÎ) ﴾

﴿ þYgøÎ (rã‡Ï‰r (qÇ“tÃ ÏŸr (qè$ƒB žv& è 6 Í=J‡Ï$ÐÎgøæ

﴿ íqš s‡$ ’Î ׊æ‡$Ïr& ßtÃ ÇÌÈ šc r‰ãqè ÓÉZä ÓÉ‰$

﴿ ׊æÝàR& þÏGÎ@ $B $gšÏù ׊æ9r íÅÝ$ ’Îr $<‰9$

وفي قول الله عز وجل في سورة (٣) ﴿ bqãŠ? $B $gšÏù ׊æ9r ﴾

---

(١) سورة غافر : (٧-٨).

(٢) سورة الطور : (٢٦) وانظر: تفسير القرطبي (٢٩٦/١٥).

(٣) سورة فصلت : (٣٠-٣١).

الشورى:

﴿ `Jï šc ræÿøFó„r ÙÍÍ‘ ï‰Ôt2 bqßsÎm çè3Í¯»=J¹¸ ﴾ ﴿ ÈâïmS¹$âqÿó¹¸qè ©$Ïbj wŸ& ÇÚ öF$’Î ﴾[1] بيان آخر

لاستغفار الملائكة الكرام عليهم السلام لمن في الأرض. ومن المفسرين من حمل العموم في هذه الآية على الخصوص الوارد في آية سورة غافر ففسر (من في الأرض) بأ ـم المؤمنون، وعلى هذا يكون المراد بالملائكة في آية سورة الشورى حملة العرش، قال القرطبي في تفسيره: وقيل: جميع ملائكة السماء، وهو الظاهر من قول الكلبي، ويرجح القرطبي بأن الملائكة حملة العرش مخصوصون بالاستغفار للمؤمنين خاصة وأن لله ملائكة أُخر يستغفرون لمن في الأرض[2].

قال الماوردي في تفسيره[3]: ((وفي استغفارهم لهم قولان:

أحدهما: من الذنوب والخطايا، وهو ظاهر قول مقاتل.

الثاني: أنه طلب الرزق لهم والسعة عليهم. قاله الكلبي)).

---

(١) سورة الشورى : (٥).

(٢) تفسير القرطبي (٥/١٦).

(٣) تفسير الماوردي "النكت والعيون" تحقيق: خضر محمد خضر (٥١٢/٣).

قال القرطبي: ((وهو الأظهر لأن الأرض تعم الكافر وغيره)). وقال: ((ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿ ẅŕ‘ b& Ú öŦ$r ÏN°q»J¡ 9$Û• Å‚ðã©$bÎ * ﴾ إلى قوله: ﴿ 7/‘ bÎr ﴾ وقوله تعالى: ﴿ #Yqà‚î $¸JŠÎm b‰. ¼çRÎ ﴾ (١)، (٢) وقوله تعالى: ﴿ óÎgÏèB 4?ã Ä $Z=Ï ç•ÏóB r‘! ﴾ (٣) والمراد بالحلم عنهم ألا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاماً)) (٤).

سادساً: أنه سبب لحصول الحياة الطيبة، واستقرار الحياة على أسس سليمة قويمة ينال فيها الناس حظوظهم بناءً على إمكانياتهم ومواهبهم، فلا يجاوز إنسان فيها قدره متجاسراً على أقدار الآخرين، بل كل واحدٍ يعرف قدر نفسه فيقف عنده، فأهل الفضل، والصلاح، والعلم، والدعوة إلى الله تعالى محفوظة أقدارهم في مجتمعهم في تلك الحياة الطيبة، وإذا حفظت

---

(١) سورة فاطر : (٤١).
(٢) سورة فاطر : (٤١).
(٣) سورة الرعد : (٦).
(٤) تفسير القرطبي (٥/١٦). وانظر: تفسير الزمخشري (٣٩٧/٣).

أقدار هؤلاء الرجال وأمثالهم، فإن في ذلك خيراً كثيراً يعود على الحياة في مظاهرها المختلفة، وذلك أن وجود القدوة الصالحة مهم لنمو الأجيال النمو الصحيح الذي يحفظ حركتها وهي تعبر على قنطرة الحياة تبني آمال أمتها في المجد والخير. ونحن ننتمي إلى أمةٍ عظيمة هي أمة محمد r التي قامت حضارتها على وجود القدوة الصالحة وهي غنية في هذا الميدان بتلك المثل الماجدة، والنماذج الرائعة التي تربت على يدي المثل الكامل والمربي الأعظم سيدنا رسول الله r ثم تربى بعد ذلك على الميراث النبوي الطاهر الخالد التالد إلى قيام الساعة من علماء هذه الأمة الذين ورثوا هذا الإرث الشريف المنيف مَنْ كانوا أقباساً مضيئة أنارت الدرب للسالكين من أبناء هذه الأمة على طريق الإسلام القويم.

إن الله تعالى ينبه خلقه إلى أهمية الاستغفار وشأنه في وجود تلك الحياة الطيبة ومظاهرها الجميلة السارة بقوله جل وعز من قائل:

﴿ $è»GB Naèh Jaïø) (pqê Sê ra/‘ (rayóFM$ Ér

¼ßÒù @Òù “Ë @ä ÏNs÷r ‘ kwi B @_ & #<) $Z¡m

ولكن [1] ﴾ ĂÎ. 5o/ > #< ã ßæ NS % { & þÛù (q@? bÎr

(١) سورة هود: (٣).

قبل عذاب ذلك اليوم الكبير هناك دين رهيب تدفعه الأمة بإعراضها عن الاستغفار، تدفعه من سعادتها، وأمنها، ورخائها واستقرارها، وصلاح حالها ومآلها. وإنه لتصوير جليل جميل ومشرق يصور تلك الحياة الجميلة في هذه الكلمات الربانية الطاهرة من كلام ربنا العظيم الكريم جل جلاله ﴿ ¼&Où @Où " Ï @ä Ïs?r ﴾(١) إن مال الدنيا كله عاجز عن إيجاد هذه الحياة الفاضلة ظاهراً وباطناً، إن المال يمكن أن يبني المادة الصَّمَّاء مثل صممه، ويبني الظاهر المادي، ولكنه غير قادر على أن يبني الروح.

إن الاستغفار والتوبة لله جل جلاله سبب من أسباب قيام الحياة القوية في جانبها المادي، والقوية في جانبها الروحي أيضاً، ولا شك بأنه لا يمكن أن يتصور وجود الحياة الطيبة التي يمتع فيها الناس متاعاً حسناً في ظاهر الحال إلا إذا كانت قلوبهم عامرة بحب الله تعالى وطاعته، واستغفاره والتوبة إليه، ومحبة كل سبيل يوصل إليه – سبحانه وتعالى –. لذلك فإن حياة القلوب هي التي يرتب عليها القرآن الكريم الحياة الطيبة في مظاهرها المختلفة.

قال ابن القيم – رحمه الله –: ((وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة

---

(١) سورة هود: (٣).

والرضى والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب أ ا حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إ م لفي عيشٍ طيب، وقال غيره: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره وهي عكس الحياة الطيبة))(١).

وحياة القلب ليست حياة واحدةً ولكنها حيوات كثيرة متنوعة تتلألأ روعة وجمالاً وبهاءً ومنها: حياة اليقين، وحياة العزة، وحياة الكرامة، وحياة العبودية لله تعالى، ومحبته، ومحبة رسوله r ، وحياة العفة، والمروءة، والشجاعة والمودة، والسماحة، والصدق، والوفاء، وحياة الأنس بالله تعالى، والاستغناء به عما سواه.

سابعاً: ومن فوائد الاستغفار وثمراته أنه سبب لحصول القوة ووفرة الرزق بكثرة نزول المطر المدرار. قال الله تعالى: ﴿ ƒr»(ÇÒÈ ÏQöq$ŠÏFÖ$#ur ÞÚöF{$#ur ÉAqß™u‘ ÏM»oYÏB÷sßJø9$# ÉOøOÎ)ur

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/٢٥٩).

﴿ šú üÏ‰ÏÈ÷ètƒ ©!$# ¨βÎ) ×ÏWx‹Î/ ãΝä3ø‹n=tæ 4’n?tã ÏΘöθtƒ ¨βÎ) ©!$# ßìÏ‰tãr ﴾(١)

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى للمؤمنين مقالة النبي هودٍ – عليه السلام –

إلى قومه عادٍ وهم أهل شدة وبأس وكفرٍ. والتي حضهم فيها على الإيمان بالله تعالى والإنابة إليه واستغفاره، فهو سبحانه خالقهم، وربهم وهو الرحيم بخلقه، كما دلهم هود – عليه السلام – على ثمرة ما حضهم عليه وبينه لهم ليكون ذلك أدعى إلى إقبالهم عليه وأخذهم به، ((وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التي بين الشام واليمن))(٢) فرغبهم في ثمرة ما تهفو نفوسهم إليه ويحبونه من نزول المطر المدرار، وحصول القوة مع قوتهم، ووصف المطر بالمدرار؛ لأن فيه معنى التتابع، أي يرسل السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضه بعضاً كما قال القرطبي في تفسيره(٣) وكانت حاجتهم إلى المطر ماسة، قال القرطبي: ((وقيل إن الله تعالى حبس عنهم المطر وأعقم الأرحام ثلاث سنين، فلم يولد لهم ولد فقال لهم هود: إن آمنتم أحيا الله

(١) سورة هود : (٥٢).
(٢) تفسير القرطبي (٥١/٩).
(٣) تفسير القرطبي (٥١/٩).

بلادكم، ورزقكم المال والولد فتلك القوة))(١).

وقال مجاهد: شدةً على شدتكم. وقال الضحاك: خصباً إلى خصبكم. وقال علي بن عيسى: عزاً على عزكم. وقال عكرمة: ولداً إلى ولدكم. وقال الزجاج: المعنى يزدكم قوةً في النعم(٢).

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير – رحمه الله –: ((والاستغفار طلب المغفرة للذنب، أي طلب عدم المؤاخذة بما مضى منهم من الشرك، وهو هنا مكني به عن ترك عقيدة الشرك؛ لأن استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده ويستلزم اعتراف المستغفر بذنبٍ في جانبه. ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود – عليه السلام – إليهم غير ذنب الشرك إذ لم يكن لهم شرع من قبل، وأما ذنب الإشراك فهو متقرر من الشرائع السابقة جميعها فكان معلوماً بالضرورة فكان الأمر بالاستغفار جامعاً لجميع هذه المعاني تصريحاً وتكنية))(٣).

وفي هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها دعوة لقوم هود في أن يرجعوا عما هم فيه من الشرك والضلال إلى طريق الإيمان، والتوبة والاستغفار

---

(١) المصدر نفسه. وانظر: نفس المصدر : (٣٠٢/١٨) حيث ذكر نقلاً عن مقاتل ((أن الله حبس عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة)).

(٢) نفسه (٥١/٩).

(٣) تفسير التحرير والتنوير (٩٥/١٢-٩٦).

لله الرحيم الغفار، الذي جعل جزاءهم على ذلك إمدادهم بالمطر الذي يعد من أعظم النعم عليهم في الدنيا، فقد كانوا في أمس الحاجة إلى الماء، وقد أمسكه الله تعالى عليهم سنين، وهم أهل زراعة وبساتين وكروم ومنعة وقوة حتى إ ـم اغتروا بقوتهم ﴿ ٍ ﴾[١] استكباراً منهم في الأرض بغير الحق. ((وقد كانت ديارهم في حضرموت إلى الأحقاف مُدناً وحللاً وقباباً، فلذلك جعل الله لهم جزاءً على ترك الشرك زيادة قوتهم بكثرة العدد، وصحة الأجسام، وسعة الأرزاق؛ لأن كل ذلك قوة للأمة يجعلها في غنى عن الأمم الأخرى وقادرة على حفظ استقلالها، ويجعل أمماً كثيرة تحتاج إليها))[٢] ومع أن هذه الآية الكريمة جاءت خطاباً لقوم عادٍ على لسان نبيهم هود إلا أن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي آية تخاطب بها كل أمة، ويخاطب بها كل مجتمعٍ بعد عادٍ قوم هود إلى قيام الساعة، وهي دليل واضح وضوح الشمس في رابعة ـارٍ صيفيٍّ على ثمرات وخيرات الاستغفار، والتوبة.

ويمكننا من خلال هذه الآية الكريمة مع الآية الكريمة التي جاءت في

---

(١) سورة فصلت : (١٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٢/٩٦-٩٧).

بداية نفس السورة والتي جاء فيها قول الله تعالى: ﴿ frëÿøFÖ$Ès&r

@_& #<Î $Z¡m $è»GB Nàèëuçäïø)Î #þ½ç|ê ßê ïã/‘

þõûù #ö9q? bÎr ¼&#Où @Où “Ë @ä ÏNs±r ‘ ¼w¡B

ŽÀÎ. 5Qöf > #‹ã ïã3øæ ¡S%{& ﴾(١) أن نَسْتَشِفَّ حقيقة العلاقة

بين القيم الإيمانية، والقيم الواقعية في الحياة البشرية، وحقيقة اتصال حركة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين، فالعلاقة قوية واضحة بين كون الله سبحانه وتعالى – وهو الإله الحق الذي بيده مقاليد الكون كله، وله الخلق والأمر – وبين مظاهر ذلك في خلقه وكونه كله، وآيات ذلك لا تخفى إلا على من طمست بصيرته، فأنكر ضوء الشمس في رابعة النهار، فالله سبحانه هو المتصرف في كونه وخلقه، له القدرة القاهرة، والإرادة الغالبة، والعزة الشاملة، والمشيئة النافذة، والعلم المحيط، والحكمة البالغة، فما تسقط من ورقة إلا بعلمه، ولا حبة في ظلمات البر والبحر إلا وهي عنده في كتاب مبين، وما من نسمةٍ تهب، أو ذرة، أو أقل منها تتحرك في سماء أو أرض، أو بحر، إلا بعلمه جل وعلا، وعلمه سبحانه هو علم الخالق،

(١) سورة هود: (٣).

القاهر، القهار، القادر، المقتدر، العزيز الجبار، الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير. وكل شيء في كون الله تعالى وخلقه مخلوق بقدر، مصداقاً لقوله جل وعز: ﴿ ø‰ïm⁰r ŭvĵ $Rẽ‰ $Br ÇÍ⁰È 9‰)Î ıç»Yø=z äó« @ä $RĴ

ÎÇ7ø‰Ĵ ŧxð=. ﴾(١) أي وما أمرنا إذا أردنا شيئاً إلا قولة واحدة هي (كن) في سرعة لمح البصر، فيكون ما أردنا، فلا منازع لنا في سلطاننا ولا لمشيئتنا، ولا غالب لعزنا، فأمرنا نافذ، ولنا العزة والكبرياء، والعظمة والاستعلاء، والمجد والسلطان والبهاء، والجلال والجمال، والكمال، والطوْل، والإنعام، والملك، والملكوت، والحول والقوة، والقهر والجبروت.

إننا في حاجة ماسة إلى إدراك العلاقة بين قيم الإيمان ومعانيه، وبين القيم الواقعية في الحياة البشرية لندرك بيقين، أنه لا مجال لما يسمى بالصدفة، في كون الله تعالى وخلقه، وأن ما حدث وما يحدث وما سيحدث من مظاهر كونية إنما هو بعلم الله تعالى وتقديره، فكل شيء عنده بمقدار كما قال – سبحانه وتعالى –: ﴿ ÇÍÈ A‰ø‹Ï ¼ç‰Yèä äó« @à2 r ﴾

(١) سورة القمر : (٤٩-٥٠).

﴿ Æ$èFƒ3ø‰Ïƒ 6 ø‰ík¶9$ Ëø‰Ïã ﴾[١] و(كل) من

صيغ العموم، وهي مضافة إلى لفظ (شيء) وهو نكرة يفيد العموم، فيشمل ذلك كل شيء في كون الله تعالى وخلقه، من زيادة أو نقصان، أو قلة أو كثرة، أو جمع أو تفريق، أو غلبة، أو هزيمة، أو عزٍّ، أو ذل، وقس على ذلك كل ما يتصل بمعاش الخلق وأحوالهم في الحياة، وشأن الجماد والحيوان، والنبات وحياته، فالكل محكوم بقانون القدرة، والمشيئة والعلم، والحكمة لله تعالى، والله تبارك وتعالى يلفت أنظار المؤمنين إلى هذه الحقائق ليزدادوا إيماناً ويقيناً، وثباتاً، وليزدادوا معرفة به جل جلاله، فقد أخبر عز وجل في كتابه الكريم أن الماء لا يتحرك ولا يسيل في وديانه إلا بقدرٍ معلوم، وأن الماء الذي أغرق الله تعالى به قوم نوح قد جاء في وقته المحدد له تماماً لا قبل ولا بعد، ليلتقي الماء النازل من السماء مع الماء الخارج من الأرض في مكان محدد على أمر قد قدره الله تعالى بمشيئته، وإرادته. قال تعالى:

﴿ $dí‰)Ï Ø/Šr& ÖM9$ ¡ ù Ï$B Ïä$J ¡¡ 9$ŠÆ Ï Ä“R& ﴾[٢]

الآية، قال مجاهد: بقدر ملئها، وقال ابن جريج: بقدر صغرها وكبرها. وقال

---

(١) سورة الرعد: (٨-٩).
(٢) سورة الرعد : (١٧).

القرطبي: وقيل معناها: بما قدر لها[١]. وقال سبحانه: ﴿ $Yés Fÿù

$Zqãã Ú öF{$$Röf ùr ÇÈ 9KE]B ä8ÿ ä$J¡ 9$ >⁰qÚ

‘ï‰è6% 9B& #?ã ä$J4S’+G4$ù ﴾[٢] قال ابن عباس: إن الماء

المنهمر من غير سحاب لم يقلع أربعين يوماً. وتفجرت عيون الأرض فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضي به عليهم. وقال محمد بن كعب القرظي: كانت الأقوات قبل الأجساد وكان القدر قبل البلاء. وتلا هذه الآية[٣].

قال صاحب (الظلال) بعد أن أورد نصوصاً من القرآن الكريم تبين العلاقة القوية بين قيم الإيمان وقيم الواقع في الحياة البشرية: ((وهكذا نجد في هذه النصوص وأمثالها في القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق، وبين الظواهر الكونية التي تتم بالحق، وبين تنزيل هذا الكتاب الحق، وبين

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/٣٠٤-٣٠٥).
(٢) سورة القمر : (١١-١٢).
(٣) تفسير القرطبي (١٧/١٣٢).

الحكم بين الناس في الدنيا والآخرة بالحق، فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء وفق ما يكون من الناس في الخير والشر في دار الابتلاء، ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة، وبين المتاع الحسن، وإرسال السماء مدراراً، فكل أولئك موصول بمصدرٍ واحدٍ هو الحق المتمثل في ذات الله سبحانه. وفي قضائه وقدره وفي تدبيره وتصريفه، وفي حسابه وجزائه في الخير والشر سواء، وفي هذا الارتباط يتجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس، فكلتاهما تؤثر في هذه الحياة، سواء عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم، أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التي يمكن للبشر رؤيتها، وضبطها كذلك. وهي الآثار التي ينشئها في حياتهم الإيمان، أو عدم الإيمان من النتائج المحسوسة المدركة(١).

إن إدراك معنى وحقيقة أن الطاعات لله تعالى ومنها الاستغفار سبب لوفرة الخيرات والبركات ونزول الأمطار، وحصول القوة الظاهرة والباطنة، يحتاج إلى قراءة وتأمل وتبصرٍ في كتاب الله تعالى المسطور وهو القرآن الكريم، وفي كتابه المنظور وهو الكون المفتوح الواسع، والنظر في أحوال

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (١٢/١٩٠٥).

الأمم والمجتمعات ماضياً وحاضراً، وينبغي ألا يغفل العاقل عن النظر والتأمل في أحوال نفسه العجيبة التي هي عالم صغير يحكي قصة العالم الكبير حوله، ومن شأن ذلك كله أن يمكن المسلم من الوقوف على حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية وإدراك الحقيقة الخالدة بأن الله تعالى لم يخلق خلقه إلا لعبادته وهي حقيقة قرآنية من حقائق الوجود الخالدة الباقية. قال تعالى: ﴿ $Br =z åM}ø £ßJ§ RM}$ Ïvî ﴾ والعبادة لو كانت (هي مجرد الشعائر التعبدية ما [1] ﴿ ÏiÇçz¾ßr ÈÏ ﴾

استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان، إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمرٍ وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء.

إن توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد القوامة، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة، وتوحيد منهج الحياة، وتوحيد الجهة التي يدين لها

---

(١) سورة الذاريات : (٥٦).

الناس الدينونة الشاملة.

إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود، وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان، لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه، فالله سبحانه غني عن العالمين، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة (بالإنسان) إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في حياة البشرية في كل جانب من جوانبها)[١] والناس سواء كانوا أمماً أو مجتمعات، أو أفراداً إنما يسعدون في حياتهم، أو يشقون على قدر تحقيق هذا التوحيد في النفس والحياة، أو عدم تحقيقه. ويتجلى بذلك للمتأمل البصير أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس، وقد فقه علماؤنا السالفون أهمية هذه العلاقة، وخطرها في حياة الناس، وكانت إجابات الحسن البصري لمن شكوا إليه قضايا مختلفة دليلاً على ذلك، وعليه فإن قول الله عز وجل:

﴿ $è»GB Nàèèöà ïøî) #þqçè ßè ùà/‘ #räÿóFÏ$è&r

(١) في ظلال القرآن (١٩٠٣/١٢).

¼ãƒÒù @ÒÙù “ Ï Ë @ä ÏNs±ãr ‘ ¼v¡ B @_ & #<Î $Z ¡ m

وقوله (١) ﴿ ŽÀî. Ðöƒ > #‹ ã ïã¾æ ñS % { & þÐÙù ¢ïQQ? bÎr

سبحانه وتعالى: ﴿ ïnøÎ ¢bQqê Ôê ïNã2/‘ ¢rèÝýøFÕ$ÏQö)»ƒr

4<Î ç$$è ïNà2 š³ƒr #Y‘ÕÀB Nà6 øæ ä$J¡ 9$ Ë@Ïèã

فقه واسع يحتاج في فهمه (٢) ﴿ šú üÏÌ•ê ¢ïQQG? Ÿwr ïNãï$è

وإدراك أسراره إلى معرفة آثار الطاعات، وإدراك أسرارها، ومعرفة آثار المعاصي وإدراك شرورها من خلال الواقع المشاهد في حياة الأمم والمجتمعات والأفراد في الماضي والحاضر، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

ثامناً: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته أنه سبب للقرب من الله تعالى، وسبب لإجابة الدعاء، وذلك مدلول عليه بقول الله تعالى: ﴿ è‹Å è ƒ•% ’Îr bÎ ïnøÎ ¢bQqê Ôê çrèÝýøFÕ$ï (٣)﴾

---

(١) سورة هود : (٣).
(٢) سورة هود : (٥٢).
(٣) سورة هود : (٦١).

الآية. وهذا النص الكريم جزء من آية كريمة جاءت على لسان النبي صالح – عليه السلام – وهو يخاطب قومه ويدعوهم إلى نبذ الشرك، والإيمان بالله تعالى، ويبين لهم ثمن ذلك ونتيجته بأنه حصول القرب من الله تعالى، وإجابة دعاء من دعاه منهم، والعبرة في الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: ﴿ tûïÏ%©!$# ﴾ مما صدر منكم من الكفر، والشرك، والمعاصي، وأقلعوا عنها ﴿ ÇÚöF{$# ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، والإنابة ﴿ ÇÊÈ ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام، قربه بعلمه من جميع الخلق وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ ÇÊÈ ﴾(١) والقرب الخاص، قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو

(١) سورة ق : (١٦).

المذكور في قوله تعالى: ﴿ (> Î l ¸ ¨ ¸ ¸ ¸ ﴾[١] وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿ ¸ ¸ ¸ ¸ ¸ ﴾[٢] وهذا النوع قربٌ يقتضي ألطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيق لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه (القريب) اسمه (المجيب)[٣]. والإضافة في لفظ (ربي) ومجيء لفظ (قريب) مع لفظ (مجيب) واجتماعها وتجاورها ترسم صورة لحقيقة الإلهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة، وتخلع على الجو أمناً واتصالاً ومودة تنتقل من قلب النبي الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب.

تاسعاً: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته حصول الرحمة والود من الله تعالى للمستغفر. وقد جاء ذلك في كتاب الله تعالى على لسان شعيب – عليه السلام – وهو يخاطب قومه ويدعوهم إلى خلع الشرك ونبذه والدخول في الإيمان بالله تعالى واستغفاره والتوبة إليه، ويبين لهم أن نتيجة ذلك هو حصول الرحمة والود لهم من الله تعالى. قال سبحانه وتعالى: ﴿

---

(١) سورة العلق : (١٩).
(٢) سورة البقرة : (١٨٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة السعدي (٢/٤٣٦-٤٣٧).

Ös‘ † îí bÎ ïø) ¨bqçê Sê ùà6 /‘ ¨rëÿó GÜ$r

Šr Šr﴾(١) والعبرة في الآية الكريمة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وهذه الآية الكريمة لها دلالات واسعة على مدى سعة رحمة الله تعالى وعفوه وفضله وإحسانه ومدى محبته سبحانه للغفران لعباده، وكان قوم شعيب عليه السلام أهل مدين – وبلادهم تقع في الطريق من الحجاز إلى الشام – ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم أي ينقصو ـم قيمة أشيائهم في المعاملات، وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد، كما تمس المروءة والشرف، كما كانوا – بحكم موقع بلادهم – يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها، ويتحكموا في طرق القوافل، ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة، ومع ذلك كله فقد وعدهم الله تعالى برحمته، ومودته إن هم أقلعوا عن شركهم، وآمنوا به سبحانه، وأنابوا إليه واستغفروه، فهو سبحانه رحيم ودود (لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له، ويتقبل توبته، ويحبه، ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه فهو "فعول" بمعنى "فاعل"، ومعنى "مفعول")(٢).

---

(١) سورة هود : (٩٠).

(٢) تفسير العلامة السعدي (٤٥١/٣).

عاشراً: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته: أنه يجبر النقص الحاصل في كمال العبادة لله تعالى، أو في كمال الشكر له سبحانه، وذلك مدلول عليه بقول الله تعالى: ﴿ WwÒù#qéÇÒ? b& îy$Ya_ Nà6 øã §ø ﴾ : @$#(rèà2 ø$ ¡M»ù•ã ïÆ Ï OçÒù&#Œîù Nà6 îs`Ï bÎr Nà6 1‰d $J. çrèà2 ø$ Ò#•s ø$Ièê J ø$‰Yã ôÏ#qàÒ<ù& Oê Ç ÈûïÍ$ÒÜ9$`Ï9 ¾ïÍ7‰`Ï OçZà2 Ò ãî @$žc Î @$#(rãÝóÇ7Ÿ$r â $Y9$ Ú $ù& ß øm ﴾ Ò<ïm§ (١) والخطاب في هذه النصوص الكريمة يعم الحجاج الواقفين بعرفات، فالأمر فيها بالاستغفار عام وإن كان موجهاً بدايةً إلى قريش لما كانوا عليه من ترك الوقوف بعرفات، وما أحدثوا من تغيير المناسك، وإدخال الشرك وأعماله فيها، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالاستغفار مطلوب عقب كل عبادة، والحجاج قد ظفروا بتوفيق الله لهم بالوقوف بعرفة وهو موقف شريف كريم، يغفر الله تعالى لأهله فضلاً منه،

(١) سورة البقرة: (١٩٨-١٩٩).

وإحساناً فيفيض الحجاج من هذا الموقف وقد غفرت ذنوبهم، ويأتي بعد ذلك مشهد المبيت بمزدلفة وهو عبادة يمتثل الحاج فيها أمر الله تعالى له بفعلها، وبعده مشهد الذكر لله تعالى بالمشعر الحرام بمزدلفة بعد صلاة الصبح وظهور اليوم حتى طلوع الشمس، وبعد ذلك كله مشهد الإفاضة لرمي الجمرات، وذبح الهدايا، والطواف والسعي والمبيت بمنى ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك، قال العلامة السعدي – رحمه الله – في تفسيره: (ولما كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته، وتقصيره فيها، وذكر الله: شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه أكمل العبادة، ومنَّ بها على ربه، وجعلت له محلاً، ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد الفعل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر)(١).

وقد جعل الله تعالى الاستغفار ميداناً متاحاً لعباده يتلافون من خلاله تقصيرهم في شكر نعم ربهم عليهم ظاهرة وباطنة، وتقصيرهم فيما غفلوا فيه

(١) تفسير العلامة السعدي (١/٢٤٧).

عن ذكر الله تعالى، أو فيما قصروا فيه من العبادة على الوجه المطلوب المأمور به، وقد بيَّنا سابقاً أن هذه المعاني يمكن أن يدل عليها قول الله تعالى: ﴿ ©$#(rãÏÿóÇ™$# â¨ $Y9$# Ú$ù& ß‰ƒÌム$tΒ (qà)¨?$# ©Èb

Ò>ÌøƒrB ©$#žcÎ ﴾[1] وذلك من ثمرات الاستغفار وخيراته، كما يدل على تلك المعاني استغفار الرسول r ثلاث مرات بعد التسليم من الصلوات الخمس، فعن ثوبان قال: كان رسول الله r إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً[2]. ومن ذلك قوله r : ((غفرانك))[3] يكررها إثر قضاء الحاجة وخروجه من بيت الخلاء، وقد أفضنا الحديث حول هذه المعاني فيما سبق.

حادي عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته أنه جلاء للقلوب وتنشيط لها، وإزالة للغشاوة عنها، وذلك أن القلب إذا ترك الاستغفار علاه الصدأ، وأحاط بجوانبه، ومعلومٌ أن الصدأ لا يعلو المعدن الذي من شأنه أن يصدأ إلا إذا أهمل صاحبه تعاهده بالطلاء والنظافة، والصدأ يسرع إلى المعدن خاصة

---

(١) سورة البقرة : (١٩٩).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

في الأجواء ذات الرطوبة العالية، وذلك القلب لا يعلوه صدأ الغفلة، والتراخي، والتكاسل إلا بإهمال صاحبه وتفريطه، والصدأ يأخذ طريقه إلى القلب سريعاً خاصة في الأجواء التي تتكاثر فيها جراثيم المعاصي، فيكون للنفس والهوى والشيطان صولة وجولة في تلك الأجواء، وتكون دفاعات القلب ضد الأعداء المغيرين دون أدائها المطلوب. ولذلك كان التحول عن أرض المعصية مطلوباً. وجاءت نصيحة ذلك العالم في بني إسرائيل لذلك الرجل التائب الذي قتل مائة رقبة بالتحول عن أرض المعصية إلى أرضٍ أخرى فيها قوم يعبدون الله تعالى(١).

ومنظر الصدأ وهو يكسو المعدن منظر يبعث على الكآبة والضيق، بينما يكون المعدن قبل ذلك جميلاً متلألأً يبعث منظره على الراحة والانشراح، ونحن لا نرى القلب وهو يعلوه الصدأ، ولكننا نرى ما يدل عليه وهو الوجه فإذا كان القلب يعلوه الصدأ، رأينا ذلك في وجه صاحبه كآبة، وشحوباً وضيقاً، بينما نرى في جانبٍ آخر الوجه جميلاً متلألأً يكاد يقطر حبات لؤلؤ جميلة وذلك إذا كان قلب صاحبه نظيفاً من الصدأ مشرقاً بنور الطاعة والحضور بذكر الله تعالى. قال الإمام مالك بن أنس – رضي الله عنه – للإمام الشافعي – رضي الله عنه – لما اجتمع به في صغره ورأى في

(١) سبقت الإشارة إلى الحديث وتخريجه.

وجهه أنوار الطاعة وجمالها وإشراقها: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية(١). ورحم الله تعالى هؤلاء الرجال الأفذاذ من سلفنا الصالح، فقد كانوا على علم بأحوال النفس وأسباب سعادتها، وتعاستها، وأسباب جمالها ونورها، وأسباب قبحها وظلمتها. وهذا العالم النحرير الخبير بأحوال النفس وتقلباتها ابن القيم – رحمه الله – يصور لنا أهمية إشراقة القلب وأثرها قائلاً: ((وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه، وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة، في جلائها وصفائها فيمتلئ نوراً، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسي، أو به نظرة من الإنس.

فيا نظرة من قلب حرٍّ منوَّرٍ يَكَادُ لها الشيطان بالنور يحرق

أيستوي هذا القلب، وقلب مظلمةٌ أرجاؤه، مختلفة أهواؤه قد اتخذه الشيطان وطنه، وأعده مسكنه، إذا تصبح بطلعته حيَّاهُ وقال: فديت من قرين لا يفلح في دنياه ولا في أخراه))(٢).

والصدأ يحجب جمال وإشراق المعدن ولمعانه ونتيجة لذلك فلا تعرف

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (٥٦-٨٣).
(٢) الجواب الكافي ص (١٠٠-١٠١).

للمعدن بالصدأ قيمة، والأمر كذلك في القلب الصدئ فلا تعرف قيمة صاحبه، وبالتالي فكما أن الصدأ حاجز مانع من الرؤية فكذلك القلب الصدئ محجوب من الرؤية الصحيحة، وإدراك الأشياء إدراكاً صحيحاً والحكم عليها حكماً صحيحاً في ميادين المحسوسات والمعقولات. وفي المقام يمكننا بالمقابل أن نتدبر معاني ودلالات قول الله تعالى: ﴿ $kŠS»ƒ öÝ3ãr $Z%öè tΑ$©@èƒr ©$#(qàC? bÎ)(qZB#ä šú ï̍Ï©Š @©Oýø9 rê ª!$# tΑ$9 öýƒr tΑ$ĺ™ tà6 Zã ©$#(qàC©$#(qZB#ä ûï̍Ï©Š$kŠS»ƒ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ (١) ﴾ É=Šàè9 @èƒr ¾ÍnÏJôn§ `B È,#ƒÍ tΑ$s% ¾ÍÎqß•Î (qZB#är ¾ÍnÏÖqàî ª!$# tΑ$9 öýƒr ¾ÍnÏ bqàÒ? #Yqç tà6 © Ç»Heq9$ÌƒÍ `ã ß‰èƒ `Br ﴾ وقوله عز من قائل: ﴿ (٢) ﴾ tΑ$r‰YÁ‹9 tΑ$Îr ÇÏÈ Ö‹Ì% ¼ç9 qßù $Z»Üø© ¼ç9 ôÙ ĺ)ç

(١) سورة الأنفال : (٢٩).
(٢) سورة الحديد : (٢٨).

﴿ brßGôB Nä& bqçj tr è<îj 9$Çã ﴾(١).

ومعلوم أن الصدأ إن ترك على المعدن ولم يُزل، تكاثر وتطور في كمه وكيفيته، وهو يبدأ بقعاً صغيرة، ولكنه إذا أُهمل تطور، وأصبح أمر إزالته يحتاج إلى مواد تزيله، وفي هذه الحالة قد يزول وقد تبقى آثاره، لأنه شديد الالتصاق بالمعدن، فكذلك صدأ القلب يبدأ بنقطة أو بقعة، ثم يتكاثر وهو شديد اللصوق بالقلب ويتطور في تكاثر حتى يصير رَيْناً، ثم يفلت حتى يصير طبعاً وفعلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، ويأتي الاستغفار مادةً قوية تزيل صدأ القلب ورَيْنه وتطهره، فهو طريق التوبة إلى الله تعالى، وهو سفينة النجاة إلى شاطئ الأمن والأمان، وهو قربة وطاعة لله ورحلة لمناجاته، واعتذار وندم في ساحة فضله وعفوه وكرمه، وهو سبحانه خير الغافرين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

ولا شك أن لصلاح القلب آثاره العائدة بالخير والفائدة على المستغفر في مجالاته كلها، وذلك يعود بدوره بالفائدة والخير على الأسرة، والمجتمع، والأمة. وذلك باعتبار أن صلاح القلب ونشاطه وقوته هي الأساس في قوة البدن ونشاطه وعافيته مصداقاً لقول النبي r : ((**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي**

---

(١) سورة الزخرف : (٣٦-٣٧).

القلب))[١] فالاستغفار من الوسائل الهادفة النافعة في قوة المجتمع، وحسن أدائه في ميادين الحياة المختلفة، والرسول r يوجه إلى أهمية الاستغفار وشأنه في تجديد النشاط القلبي، وتدارك ما فات من لحظات الفتور وذلك في الحديث الذي رواه مسلم عن النبي r قال: ((**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**))[٢].

قال عياض: المراد بالغَيْن فترات عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما عَدَّ ذلك ذنباً فاستغفر عنه، وقيل: هو شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله والشكر لما أولاه، وقيل: هي حالة خشية وإعظام، والاستغفار شكرها[٣]، ((وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبي r وهو معصوم، والاستغفار يستدعي وقوع معصية، وأجيب بعدة أجوبة: منها ما تقدم في تفسير الغين، ومنها قول ابن الجوزي: هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحد، والأنبياء وإن عُصِموا من الكبائر فلم يعصموا من الصغائر. كذا قال. وهو مفرّع على خلاف المختار، والراجح عصمتهم من الصغائر أيضاً، ومنها قول ابن بطال: الأنبياء أشد الناس اجتهاداً في العبادة

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) فتح الباري (١٠٢/١١).

لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة، فهم دائبون في شكره معترفون بالتقصير. ومُحصل جوابه: أن الاستغفار من التقصير في أداء الحق الذي يجب لله تعالى، ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة مِنْ أكل أو شرب، أو جماع، أو نوم، أو راحة، أو لمخاطبة الناس، والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدوهم تارة، ومداراته أخرى، وتأليف المؤلفة، وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله، والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته، فيرى ذلك ذنباً بالنسبة إلى المقام العلي وهو الحضور في حظيرة القدس، ومنها أن استغفاره تشريع لأمته، أو من ذنوب الأمة فهو كالشفاعة لهم))[(١)].

ثاني عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته أنه سبب لحصول المغفرة، فمن أعطي الاستغفار فَقَمِنٌ به أن يُعطى المغفرة، فما أَلْهَمَ الله عبداً الاستغفار إلا وهو يريد أن يفتح له باب التوبة، والمغفرة. ونصوص القرآن الكريم تدل على هذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿ bÎ) ©!$# (#ρãÝàΡr& ©!$# ﴾[(٢)] فعلية هذا الأمر الإلهي الكريم بالاستغفار والإكثار منه هي أن الله غفور رحيم للمستغفرين. قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره: ((أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها

(١) انظر: فتح الباري (١٠١/١١) وما بعدها.
(٢) سورة المزمل : (٢٠).

فإنه غفور رحيم لمن استغفره))(١).

وهذه الآية الكريمة هي آخر آية في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، حفلت بتكاليف الدعوة، وأعبائها، والصبر على مشاقها والتكليف بقيام الليل، والحديث عن يوم القيامة وأهواله، وتسلية الرسول r عما يلقاه من قومه من الأذى، وغير ذلك من مواضيع حفلت بها هذه السورة الكريمة، وختامها بأمر الله تعالى لعباده باستغفاره أمر له دلالاته وإيماءاته في بيان سعة مغفرة الله تعالى ورحمته، وبيان شأن الاستغفار وأنه سبب للمغفرة، فالإنسان هو الإنسان، يخطئ مهما جد وتحرى الصواب، فمجيء هذه الآية الكريمة في ختام هذه السورة المباركة لمسة حنان ورحمة، وشعاع أمل ينير الدرب للسائرين إلى المغفرة على طريقها الممهد الميسور وهو الاستغفار.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره: ((وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك))(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٦٠).
(٢) تفسير السعدي (٥/٣١٤).

وقال صاحب تفسير التحرير والتنوير: ((وجملة ﴿ ÔqÝ¡ÎÎ ©!$#bÎ) ﴾ ﴿ ÏM»ysÎ ﴾[١] تعليل للأمر بالاستغفار، أي لأن الله كثير المغفرة شديد الرحمة، والمقصود من هذا التعليل الترغيب والتحريض على الاستغفار بأنه مرجو الإجابة، وفي الإتيان بالوصفين الدالين على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة))[٢] وقوله عز وجل: ﴿ ÏM»ysÎ ÔqÝ¡ÎÎ ©!$#bÎ) ﴾ مشعر بأن ذنوب العباد مهما كثرت وعظمت فمغفرة الله أوسع، ورحمته أرجى، فالذنوب يغفرها الله تعالى إذا تيب منها، ومعلوم أن طريق التوبة يبدأ بالاستغفار، والاستغفار سبب لمغفرة الكبائر التي لا توجب على مرتكبها حكماً في نفسٍ ولا مالٍ، وهو ما استنبطه أبو نعيم الأصبهاني من الحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره من حيث زيد وغيره مرفوعاً: ((**من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان فر من الزحف**))[٣]

قال أبو نعيم: ((هذا يدل على أن بعض الكبائر تغفر ببعض العمل الصالح

---

(١) سورة المزمل : (٢٠).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٩/٢٩٠).
(٣) تقدم تخريجه في صيغ الاستغفار.

وضابطه: الذنوب التي لا توجب على مرتكبها حكماً في نفسٍ ولا مالٍ، ووجه الدلالة منه أنه مثل بالفرار من الزحف وهو من الكبائر فدل على أن ما كان مثله أو دونه يغفر إذا كان مثل الفرار من الزحف، فإنه لا يوجب على مرتكبه حكماً في نفسٍ أو مال))(١).

ثالث عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته: أنه يدل على مكانة وشأن المسلم عند الله تعالى، فبرغم بشاعة الذنب وقبح المعصية إلا أن الله تعالى لم يترك عبده المذنب يتخبط في أوحال وظلمات ذنوبه ومعاصيه، بل تداركه برحمته وفضله، ففتح له باب الاستغفار وجعله طريقاً إلى المغفرة، ودعاه إلى الاستغفار، والإنابة، حتى لا يصبح فريسة للشيطان واليأس والقنوط، رحمة منه وتفضلاً وإحساناً، فقال تعالى: ﴿ Nîâƒ r& #ãbrß @Jèƒ `Br

$VŠïmS#Yqàî ©$‰Eƒ ©$ïýóG„ Oê¼çïøR ﴾(٢).

رابع عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته: أنه يهدم صرح الغواية الشيطانية ويدمر قواعد ما بناه الشيطان – عليه لعنة الله – وما عول عليه في إغواء المسلم سنين طويلة، فالشيطان اللعين مبين في عداوته للمسلم، وهو – قاتله الله – لا يترك فرصة إلا اهتبلها في إغواء المسلم، وإضلاله،

(١) فتح الباري لابن حجر (٩٨/١١).
(٢) سورة النساء : (١١٠).

وهو مزوَّد بإمكانيات هائلة لا يمكن للمسلم الوقوف أمامها بقوتها المجردة، ولكن رحمة الله بعبده المسلم عظيمة، فقد هيأ تعالى برحمته للمسلم الأسباب التي تجعله قوياً أمام إمكانيات الشيطان اللعين الهائلة، ومن تلك الأسباب الاستغفار، وهو سببٌ قويٌ فعالٌ وأكيد في تدمير الكيد الشيطاني، وإبطال آثار مخططاته الشريرة في الغواية، والإضلال، وتبديد غيوم الظلام التي تحجب المسلم عن الرؤيا، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي r قال: ((**قال إبليس: وعزتك لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**))(١).

وهذا الحديث الشريف يدل على رحمة الله بعباده حيث لم يتركهم للشيطان اللعين يتسلط عليهم بشره وإغوائه وضلاله، بل فتح لهم – سبحانه – باب مغفرته، وجعل الاستغفار سبيلهم إلى هذا الباب، وفي ذلك خير لهم وهداية ونجاة وفوز.

خامس عشر: ومن ثمرات وخيرات الاستغفار أنه طريق يوصل صاحبه إلى الجنة، فعن عبدالله بن بشر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله r يقول: ((**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً**))(٢) وطوبى: اسم من أسماء الجنة، وقيل: اسم شجرة في الجنة تظلل مسافة طويلة في

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

أمكنتها، وأصلها: فُعلى من الطيب(١)، والمعنى: أن المستغفر ينال مكاناً سامياً في الجنة ذا رائحة طيبة زكية، يفوح شذاها، وهو دعاء من النبي r لمن وُجد في صحيفته استغفار كثير، بأن يجعل الله تعالى مصيره إلى الجنة، ولا شك أن دعاءه عليه الصلاة والسلام مستجاب.

وهذا الحديث الشريف يوقفنا على حقيقة هامة تتصل بوظيفة الاستغفار وأثره في حياة صاحبه فهو سبيله إلى الترقي في الكمالات والدرجات حتى يكون مؤهلاً لأن تشمله دعوة الرسول r بدخول الجنة.

سادس عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته أنه طريق العبودية لله تعالى، والدليل عليها، وذلك أن العبد حين يلجأ إلى الله تعالى بالاستغفار من الذنوب، فهو يعلم يقيناً أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فهو سبحانه وحده غافر الذنب. فقول العبد المذنب: (أستغفر الله)، دليل على إحساسه بالجرم وثقل الذنب، ودليل على استشعاره بأنه عبد ومخلوق لرب كريمٍ عفوٍ رحيمٍ، وأنه سبحانه يتجاوز برحمته عن المذنبين، وأن المغفرة من الذنوب لا تبتغي إلا عنده سبحانه وتعالى، ولا تُطلب إلا منه جل جلاله فهو الغفور الرحيم، فأبوابه مشرعة للمستغفرين، ومغفرته مبذولة لهم، فما حُرِمَ منها إلا خاسر، وما ظفر بها إلا ناجح رابح، فهذا أبونا آدم – عليه

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير. ت: الطاهر الزاوي/ محمود الطناحي (١٤١/٣).

السلام – مع زوجته حواء ناديا ربهما قائلين: ﴿ $Z ¡ ÿ¼R& $YH÷ß $Z/‘ ﴾ (١) ﴿ `ƒÎÅ» , ø‹s`Ï ûðqãZ9 $Yϑmèr $Z9 ëÿó? ÓŠbÎr ﴾ الآية بعد أن ألهمهما برحمته وعفوه أن يقولا هذه الكلمات. قال تعالى: ﴿ ïmøã > $Gù ¸M»J¡. ¾ïÍ‹s`Ï ãŠ#ä #ÿ=Gù ﴾ (٢). ونوح – عليه السلام – فزع إلى ربه بطلب المغفرة والرحمة، فالظفْرُ بها ظفر بكل محبوب مرغوب، قال الله تعالى: ﴿ A$% ‘ Ïèqã& þÎ) ãÉ÷ š• ÷èq㠹ø& ÓÍ_ømèr ’í ëÿó? xvÎr ÏÖÜã ¾ïÍ ’í s ø‹ $B š• =«Ø& `ƒÎÅ» , ø‹s`Ï `à2 & ﴾ (٣).

والله تعالى ينادي عباده بأن يقبلوا عليه بالاستغفار ليغفر لهم، فعن أبي ذر – رضي الله عنه – عن رسول الله r أنه قال: ((**يقول الله** عز وجل: **كلكم ضال إلا من هديت فسلوني الهدى أهدكم، وكلكم فقير إلا من**

---

(١) سورة الأعراف : (٢٣).
(٢) سورة البقرة : (٣٧).
(٣) سورة هود : (٤٧).

أغنيت فسلوني أرزقكم، وكلكم مذنب إلا من عافيت، فمن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرت له ولا أبالي)) الحديث(١).

والعبد المذنب يعلم أن مغفرة ربه سبحانه أوسع من ذنوب العباد، ولذلك فهو حين يفزع إلى ربه بالاستغفار وطلب المغفرة يعلم أنه يفزع إلى رب يغفر الذنب ولا يبالي، وأن رحمته وسعت كل شيءٍ.

روي عن أنس – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله r يقول: **((قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة))**(٢)

ومن هذا الذي يستغني عن الاستغفار وطلب المغفرة؟ إنه لا يعرض عنه إلا كل خاسرٍ داحرٍ جعل الهلاك طريقه وهو يسير فيه ليلقى في النهاية خساره وبواره، وعندها يندم ولات حين مندم، فالاستغفار شعار العبودية لله تعالى،

---

(١) جزء من حديث قدسي رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٥) وقال: حديث حسن، واللفظ له. ورواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧) بلفظ مختلف.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات برقم (٣٥٤٠) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ودليل الافتقار والحاجة إلى رحمته سبحانه. فاللهم اجعلنا من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا.

سابع عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته: أن الله تبارك وتعالى بين في كتابه الكريم أن الاستغفار متفرع عن الإيمان بالله والعلم بتوحيده. قال الله تعالى: ﴿ š• ÎR%Î ÖÜÝóGÕ¶$ ª! $ŽÎ m»9Î W ¼çR& Ó=æ$ ﴾

ÖÑ1qWBr ÑÑ7=)GÑ ÑÑ=èƒ ª! $ ÏM»YÖÑs3ÑÑ ûüÏÖÑs3tÑr

﴾(١) ففي هذه الآية الكريمة دلالة على فضل الاستغفار وشأنه وأنه عمل، وذلك أن الله تعالى جمع في هذه الآية الكريمة أمره الكريم بالعلم والعمل، وجاء العلم متقدماً على العمل. قال سفيان بن عيينة –لما سئل عن فضل العلم – : ألم تسمع قوله حين بدأ به: ﴿ ŽÎ m»9Î W ¼çR& Ó=æ$ ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم(٢)، وترجم البخاري في كتاب العلم في صحيحه (باب العلم قبل القول والعمل)(٣)

---

(١) سورة محمد : (١٩).

(٢) تفسير القرطبي : (٢٤٢/١٦).

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ص (٣٨).

لقول الله تعالى: ﴿ ª! $ŠzvÎ m»9Î w ¼çR& Ó=æ$ ﴾ فبدأ بالعلم. وفي هذه الآية الكريمة من سورة (محمد) r التي جاءت بعد آيات سبقتها جاء بيان بعض أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين، فكان الحديث في هذه الآية تفريعاً على جميع ما ذكر.

ومن عواقب ذلك ووعده أو وعيده أن أمر الله تعالى رسوله r بالثبات على ما له من العلم بوحدانية الله وعلى ما هو دأبه r من التواضع لله بالاستغفار لذنبه، ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم؛ لأن في ذلك العلم وذلك الدأب استمطار الخيرات له ولأمته، والتفريع هنا مزيد مناسبة لقوله تعالى آنفاً: ﴿ #qãB#ä ûïÏ%©$# ’<ðB ©$#b'Î 7ÏŒ ﴾

﴿ tûïÏ%©!$#ur 4<ðB ¨w ûïÍÏ»3$#b&r ﴾((1) أي إذا علمت سعادة المؤمنين وعذاب الكافرين فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة واستكمل حظوظ نفسك باستغفار ربك، وتوجه إليه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله r كان يقول: **((اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطاياي وعمدي، وكل ذلك**

(١) سورة محمد : (١١) وانظر فيما سبق: التحرير والتنوير (٢٦/١٠٤-١٠٥).

عندي))[١] والمؤمنون كلهم في مقام المستغفر لله تعالى، فما من أحدٍ منهم إلا وهو محتاج إلى الاستغفار، والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى، وذلك لا يكون إلا بناءً على قناعةٍ لدى المذنب أن ذنبه لا يغفره إلا الله تعالى، فهو سبحانه وحده القادر على ذلك، وهو أمر يدل على أن الاستغفار دليل على المعرفة بالله سبحانه، وهو ما يدل عليه الأمر الإلهي الكريم بالعلم بأنه لا إله إلا الله، مع الأمر بالاستغفار، فالاستغفار طاعة لله تعالى وعبودية. وذلك فرع عن معرفته جل وعلا والعلم بما يجب له سبحانه وتعالى، وقدم الأمر بمعرفة التوحيد، على الأمر بالاستغفار، والسبب فيه –كما يقول فخر الدين الرازي في كتابه (عجائب القرآن) –: ((أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع، والأصل يجب تقديمه على الفرع، فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته))[٢].

وأكثر المؤمنين استغفاراً لله تعالى أكثرهم علماً به سبحانه، ولذلك كان أعلم الخلق بالله سبحانه نبينا محمد r من أكثرهم استغفاراً، فقد روى نافع عن ابن عمر قال: ((إن كنا لنعد لرسول الله في المجلس الواحد مائة مرة:

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٩).
(٢) عجائب القرآن لفخر الدين محمد الرازي ص (٧).

رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم))[١].

وصح عن النبي ﷺ قوله: ((**إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**))[٢]. وكان النبي ﷺ آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: ((**اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت**))[٣].

وإذا علمنا ((أن شرف العلم بشرف المعلوم، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف. ولما كان أشرف المعلومات ذات الباري تعالى وصفاته، وجب أن تكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم))[٤]، وإذا تقرر ذلك علمنا شأن الاستغفار وشرفه وثمرته من حيث اقتران الأمر بالعلم بتوحيد الله جل جلاله بالأمر باستغفاره سبحانه وتعالى.

ثامن عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته أنه سبيل الخروج من كل ضيق، والفرج من كل هم، وسبب حصول الرزق من حيث لا يحتسب

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة (٧٧١).
(٤) عجائب القرآن ص (١٥).

المستغفر، وسبب لتيسير الأمور.

إن ملازمة الاستغفار والمداومة عليه دليل على الإيمان والتقوى، فما حافظ عليه ولازمه إلا تقي، وقد جاء في كلام الله تعالى ما يدل على ذلك، قال الله تعالى: ﴿ 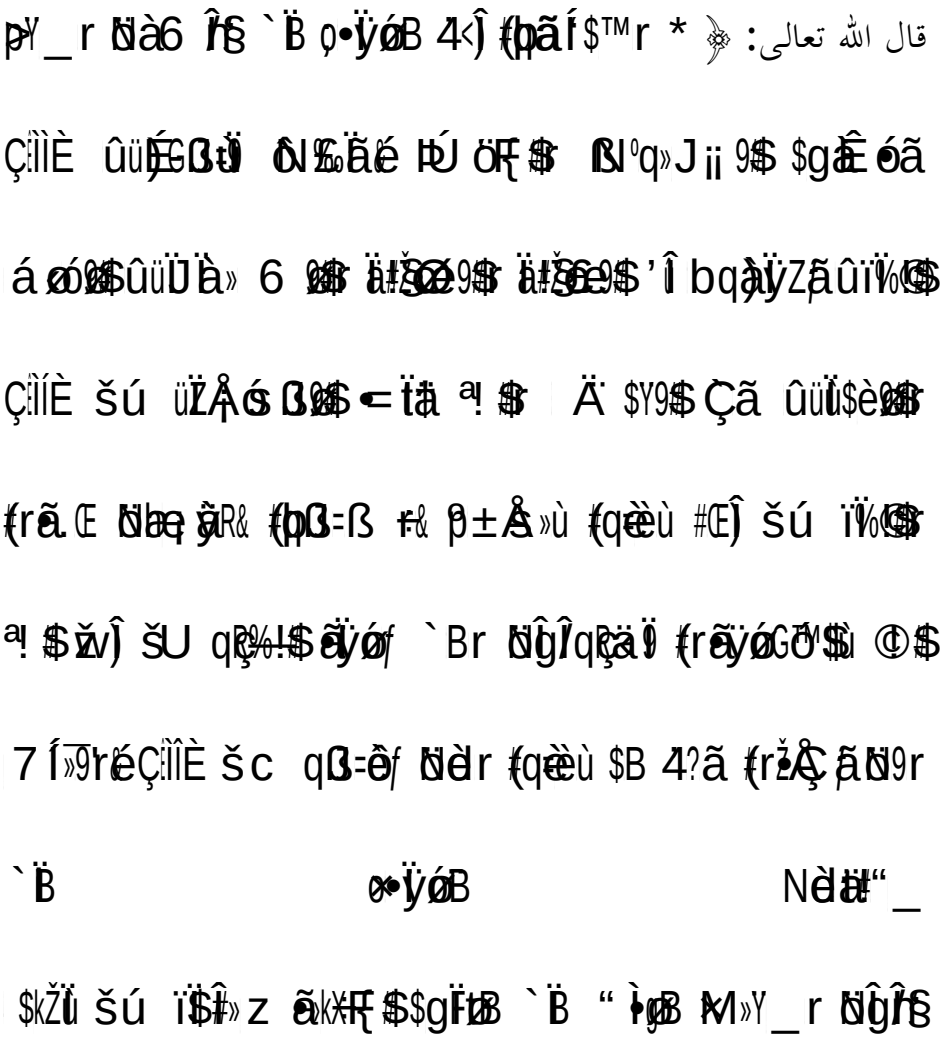

﴿ û,#Ü»èø$ê_& Nèr﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿ #Žø.ç¾íí•D& ôÏB ¼ã&©@èøt ©!$Ès? `Br﴾[٢]

وقال سبحانه: ﴿ ç¾èœr ÇÚö‘¨[`•ø¼ã&©@èøt ©!$Ès? `Br﴾[٣] والملازم للاستغفار المداوم عليه يدخل في هذا الموعود الإلهي الكريم لأنه ما داوم على الاستغفار ولازمه إلا تقي، وذلك أن غير المتقي قد يستغفر بلسانه ولكنه لا يستطيع ملازمة الاستغفار.

إن نص هاتين الآيتين يدل على أن التقوى — وملازمة الاستغفار من التقوى- هي سبيل لخيريْ الدنيا والآخرة، وملازمة الطاعات والقربات — ومنها الاستغفار- خيرها كثير لا يعلمه إلا الله تعالى، فطوبى للمستغفرين المداومين على استغفارهم.

والسؤال الذي تحسن الإجابة عليه: كيف تكون ملازمة الاستغفار سبباً مباشراً للخروج من كل ضيقٍ، والفرج من كل همٍّ، وحصول الرزق من حيث لا يحتسب الملازم للاستغفار وتيسير الأمور؟

والجواب يتلخص في أن حقائق القرآن والسنة قطعية ثابتة وهي حتماً ستقع وتكون نتائجها كما أخبر بها القرآن الكريم، والنبي ﷺ. والناس أمام

---

(١) سورة آل عمران : (١٣٣ إلى ١٣٦).
(٢) سورة الطلاق : (٤).
(٣) سورة الطلاق : (٢-٣).

هذه الحقائق أنواع، فمنهم من يدركها مبكراً ويدرك بنور قلبه آثارها ماثلة في الحياة، ومنهم من لا يدركها إلا متأخراً، ومنهم من يدركها بين ذلك، ومنهم من لا يدركها إلا متأخراً وإن عاش مع الناس آثارها لأن قلبه لم ينتقل من مرحلة الطفولة، وإن امتدت به السنون فينقضي عمره وهو عاكف على شهواته وملذاته لاهياً لاعباً بعيداً عن إدراك الحقائق غير آبه بها، وهذا مثله مثل الطفل الصغير، فإن الطفل يُرى عاكفاً على اللعب واللهو وذلك هو ما يناسب مرحلة طفولته لا يرى الدنيا إلا اللهو واللعب، وألعاب هذا الطفل عنده هي كل شيء ولو أخذت منه لعبته لأقام الدنيا ولَمْ يقعدها صراخاً وعويلاً، وبقي حزيناً كئيباً، ولكن هذا الطفل حينما يجاوز مرحلة الطفولة إلى ما بعدها ويتدرج في سلم العمر فإنه حينئذ يتعجب من حال الأطفال في طفولتهم حين يراهم عاكفين على لعبهم لا يُوَلُّون على شيء سواها، والإنسان الذي لا يتحول عن مرحلة الطفولة وإن كبر سنه يظل غير مهيأ لإدراك الحقائق في حياته. ومثل هذا لا يمكن أن يعي معنى أن ملازمة الاستغفار سبب للخروج من كل ضيقٍ، والفرج من كل همٍّ، وحصول الرزق من طريق لا يتوقعه المستغفر.

وعلى ذلك فإن حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية لا يدركها إلا من شرح الله صدره، ونوَّر قلبه، فيرى العلاقة قائمة ماثلة بين القيم الإيمانية والقيم الإنسانية في الحياة لا انفكاك بينهما، ويدرك معنى قول الله تعالى: ﴿ A$%

$Bfù ÆŒã ŒJè7ï ¤ãàÒè/ $ð‹Ïd $g¥Ï $ÜÎ7ï¤$

ÿr @ÆÒƒ Ÿxù “ #‰èl ì7Œ$ÇJù “ ¥‰Ïl ÓÍÏB Nà6 Z•Ïûƒ

Æ±ŠÏèB ¼ãl bfù “ ìò2 ŒE `ã Ú•ã& ôBr ÇÏÈ 4+ê„

وأن الثواب (١) ﴿ 4 Jã& ÏJ»ŠÉ¤Ï$ Qöƒ ¼çãàtÙr ‰ZŸÊ

والعقاب أمران جوهريان في الحياة، وأن الثواب وما يتبعه من خيرات وعطايا ظاهرة وباطنة، عاجلة وآجلة، مترتب على طاعة الله جل جلاله وعبادته والتقرب إليه سبحانه بشتى أنواع القربات التي أمر بها وندب إليها نيةّ وقولاً وفعلاً وحالاً، وأن العقاب وما سيتبعه من نقمٍ وشدةٍ وضيقٍ وخزايا ورزايا وبلايا وذل وتأخر، وغير ذلك كثير وكثير مترتب على معصية الله سبحانه وتعالى ومخالفة أوامره والبعد عن سبيله المستقيم.

فالملازم للاستغفار متصالح مع ربه — سبحانه وتعالى — تائب إليه نادم على ما فرَّط في جنبه، وهو سبحانه قريب من عباده المستغفرين له الملازمين لطاعته، يشملهم برحمته ووده، يفيض عليهم الخيرات ويفتح عليهم بركات

(١) سورة طه : (١٢٣-١٢٤).

من السموات والأرض، ويمكن لهم ويزيدهم قوة إلى قوتهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويطيب حياتهم، ويحفظ أقدارهم، ويوسع أرزاقهم ويصلح حالهم ومآلهم.

وأثر الطاعات – ومنها الاستغفار بالملازمة – مشاهدٌ معلومٌ في واقع الناس وحياتهم على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة، وأثر المعاصي معلوم مشاهد كذلك، لا ينكر ذلك إلا جاهل بظواهر الحياة من حوله. ورحم الله علماء هذه الأمة من الصحابة – رضي الله عنهم – ومن جاء بعدهم، فقد كانوا يدركون العلاقة بين الطاعات وبين آثارها والعلاقة بين المعاصي وبين آثارها في الحياة، فهذا عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – يقول : ((إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق))(١) والله جل جلاله هو مالك الملك، خالق الخلق، له الخلق والأمر، وبيده الرزق، فكل شيء أحبه وحث عليه فهو مبارك، وهو سبحانه الذي يبارك وحده، البركة كلها منه، وكل ما نُسب إليه فهو مبارك، ولا منتهى لما يبارك فيه، والبركة منه سبحانه متفرعة عن مرضاته، ومرضاته جل وعلا هي لمن أطاعه واتبع سبيله، والاستغفار من أسباب مرضاة الله تعالى، ومرضاته

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص (٥٨).

سبحانه ينشأ عنها للعبد كل خير عاجلً وآجل، ظاهرٍ وباطنٍ، فيفرج عنه كربه، ويكشف عنه غمه وهمه ويوسع له في رزقه، ويكون له من الله تعالى العون والسداد والحفظ والعناية والهداية.

تاسع عشر: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته أن الله تعالى أمر به نبيه r عند تمام نعمة الفتح ودخول الناس في دين الله. قال تعالى ﴿ ¨ $Y9$$ M‡&‘r ÇÈ ßGÝ¡ßß «! $$ãÁR ä$_ #Œ) 7îh‘ ï‰ðt2 ôîm ù ÇÈ %[` #qàß «! $ÇƒŠ ’Î šc qèÇ‰ƒ ÇÌÈ $ƒRß? b%Ÿ2 ¼çR) qèÝàGÜ$$ﷺ[1] وهو توجيه رباني كريم للمؤمنين في كل زمان ومكان بالحرص على الاستغفار عند حصول نعمة من نعم الله وتمامها في حياتهم، سواء تمثلت هذه النعمة في تمام عبادة، أو بناء بيت، أو زواج، أو نجاح في تجارة، أو سلامة من خطر متوقع، أو حصول على شهادة دراسية، أو وظيفة مناسبة، أو حصول بشارة بما يسر، وليس بالضرورة أن النعمة خاصة بالشخص ذاته، بل يمكن أن تكون خاصة بأبنائه وبناته وأهله ومن يحبه من أصدقائه وإخوانه في الله. قال الرازي في تفسيره: (وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار،

(١) سورة النصر : (١ إلى ٣).

وكذلك خواتيم الأعمال)[١].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: (ويدل عليه أيضاً أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبي **r** إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً[٢]، وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوءه أن يقول: (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين)[٣] فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيقه ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عقيبها)[٤].

عشرون: وفي الاستغفار النجاة من أخذ الله الأليم الشديد، ومن الهلاك. قال تعالى: ﴿ $Br ZB ì $Z9$ ¨ b& ã|sÿþë‡)Ý÷ `!ädÅÑ

%ø$Ç$ '3 r„óGóøýãr‡ ‘/ßÑ)îW× b& ?ûîäÑ '$!Zèp$ Fïr,Îû &r

---

(١) تفسير الرازي : المجلد السادس عشر (جـ٣٢/١٦٣).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي برقم (٥٥).
(٤) بدائع التفسير : (٥/٣٥٩-٣٦٠).

﴿ ... ﴾[١] فبين الله تعالى أن إيمان الكفار واستغفارهم سبب في نجاتهم من العذاب، ومن الهلاك الذي حل بمن قبلهم وتلك سنة الله في المكذبين. وقال تعالى: ﴿ ... ﴾[٢] وقال سبحانه: ﴿ ... ﴾[٣] الآية.

واحد وعشرون: ومن ثمرات الاستغفار وخيراته: أن الله تعالى جعله من أبواب العبادة التي خلق الله المكلفين من أجلها. روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله r قال: **(والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)**[٤].

---

(١) سورة الكهف: (٥٥).
(٢) سورة العنكبوت: (٤٠).
(٣) سورة الأنعام : (٦).
(٤) صحيح مسلم : (٢٧٤٩).

اثنان وعشرون: ومن ثمرات الاستغفار أنه سبب لغفران الذنوب مهما كثرت، وذلك يدل عليه قول الرسول r فيما رواه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله r يقول: **(والذي نفسي بيده أو قال: والذي نفس محمد بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله عز وجل لغفر لكم)**(١) الحديث.

وأخرج الترمذي في جامعه أن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله r يقول: قال الله تبارك وتعالى: **(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)**(٢) قال الترمذي: هو حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثلاث وعشرون: ومن ثمرات الاستغفار: أنه يكفر لصاحبه ما صدر عنه من لغو في المجلس الذي جلسه، إذا استغفر الله قبل قيامه من ذلك المجلس، روى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r

---

(١) المسند : (٢٣٨/٣) رقم (١٣٥١٨).
(٢) جامع الترمذي : (٣٥٤٠).

: (من جلس في مجلسٍ فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك)(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

أربع وعشرون: ومن ثمرات الاستغفار أنه مما يفزع به إلى الله تعالى عند ظهور نذره وآياته التي يخوف الله بها عباده، مثل الخسوف، روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خسفت الشمس فقام النبي r فزعاً يخشى، فأتى المسجد فصلى بأطول قيام وركوع وسجود ما رأيته قط يفعله وقال: **(هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته ولكن يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره)**(٢).

خمس وعشرون: ومن ثمرات الاستغفار أنه سبب من الأسباب التي يزحزح بها المؤمن عن النار في يومه. أخرج مسلم في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r قال: **(إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل، فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله،**

---

(١) نفس المصدر : (٣٤٣٣).
(٢) صحيح البخاري : (١٠٥٩) وانظر : صحيح مسلم : (٩١٢).

وسبَّح الله، واستغفر الله، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدل عن تلك الستين والثلاثمائة السلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار)(١).

ست وعشرون: ومن ثمرات الاستغفار أنه نافع المؤمنين في الدنيا وفي الآخر سواء كان صادراً منهم، أو من إخوا ـم المؤمنين، ومعلوم أن الآباء الصالحين وأبناءهم يستغفر بعضهم لبعض في حياتهم جميعاً، ويستغفر الحي منهم للميت، ومن الأول قول الله تعالى على لسان يعقوب حين قال لبنيه:

﴿ ÐŠïmS9$$âqèàóø$$qè ¼çR] þîn ùa9 ëÿøGÓ™& š’ ô™ ﴾

﴿(٢) وذلك حين قال له بنوه: ﴿]ƒ»'/$R$$™ÓGÿøë 9Z$ èqçR/Z$]R$ ﴾

﴿ ûüïÏÜ»z $Zä ﴾(٣).

ومن الثاني: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار**

---

(١) صحيح مسلم : (١٠٠٧).
(٢) سورة يوسف: (٩٨).
(٣) سورة يوسف : (٩٧).

ولدك لك)[١].

وفي ختام هذه الثمرات أود أن أرصعها بكلام جميل في الاستغفار من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى ومما جاء في ذلك قوله: (الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، ومن العمل الناقص إلى العمل التام، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإن العبد العارف بالله في كل يوم بل في كل ساعة بل في كل لحظة يزداد علماً بالله وبصيرة في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه، وشرابه، ونومه، ويقظته، وقوله، وفعله، ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقها فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطر إليه دائماً في الأقوال والأفعال في الغوائب والمشاهد لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية، وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقترا ـا بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم، ومن آخرهم إلى أولهم، ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله، ولكل عامل مقام معلوم، فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجله، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلانيته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه. والاستغفار

---

(١) سنن ابن ماجه : (٣٦٦٠) وانظر: صحيح سنن ابن ماجه (٢/٢٩٤).

يمحو ما بقي من عثراته ويمحو الذنب الذي هو من شعب الشرك فإن الذنوب كلها من شعب الشرك، فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء: قول: أستغفر الله)(١).

وقال رحمه الله: (والاستغفار من آكد الحسنات وبابه واسع، فمن أحسَّ بتقصير في قوله، أو عمله، أو حاله، أو رزقه، أو تقلب قلبه فعليه بالتوحيد والاستغفار ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص)(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١/٦٩٦-٦٩٧).
(٢) المصدر السابق : (١١/٦٩٨).

الخاتمة

تبين مما تقدم في هذا البحث شأن الاستغفار وأثره على مستوى الفرد والمجتمع، والأمة بأسرها، وأنه سبيل حصول الحياة الكريمة التي يسودها الأمن والاستقرار، ويؤتى فيها كل ذي فضلٍ فضله، وذلك كله وسواه يدل على أن الاستغفار من أسباب القوة والمنعة في الحياة، وزيادة في الخيرات، والأرزاق. والاستغفار طاعة وقربى لله عز وجل فما استجلب ما عند الله بمثل طاعته، فالطاعة لله تعالى سبب لكل خير، ودفع لكل شر، وهو بوابة التوبة إلى الله تعالى، فالمستغفر تائب لله سبحانه ومتصالح معه، والاستغفار الذي يكون سبباً لكل هذه الخيرات هو الاستغفار الذي يتعانق فيه اللسان والعقل، والقلب، والوجدان، والعاطفة، ويكون بالاعتراف بالذنب بين يدي الله تعالى، وطلب المغفرة منه، وليس هو مجرد ترديد كلمة الاستغفار باللسان فقط مع الإقامة على المعصية وتعلق النفس بها، فذلك استغفار العابثين لا يفيد صاحبه شيئاً. وعلى ذلك فإن تربية النشء المسلم على معرفة شأن الاستغفار وأثره، والاهتمام به، والقيام بأمره شيء مهم حتى ينشأ المسلم، وهو مصاحب لهذه الطاعة، فينشأ عن ذلك خير كثير وأجر كبير تعود منافعه على الفرد والمجتمع والأمة.

وبقي أمر أراه مهماً وأحب أن أؤكد عليه وهو: أن مساحة النظر

والتأمل في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله r واسعة لا تضيق، وصدر المسلم المنصف لا يضيق لما يخالفه ما دام ذلك في دائرة النظر والتأمل والفهم والاستنباط، وهذا العمل لا يعدو أن يكون محاولة.

فاللهم وفقنا إلى طاعتك، واجعلنا من عبادك الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **أطراف المسند،** لابن حجر، تحقيق: زهير الناصر، ١٩٩٣م، دار ابن كثير.
- **بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية،** جمع وتوثيق: يسري السيد محمد، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٢م. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
- **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وعليها،** للإمام أبي محمد عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- **تفسير ابن أبي حاتم،** لابن أبي حاتم، تحقيق: أحمد الزهراني، حكمت بشير، دار طيبة، الرياض.
- **تفسير التحرير والتنوير،** للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤م.
- **تفسير الخازن** (لباب التأويل في معاني التنزيل) دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٥–١٩٩٥م.
- **تفسير أبي السعود،** لأبي السعود محمد بن محمد العمادي . نشر دار إحياء التراث العربي. بيروت – لبنان.
- **تفسير ابن عطية** (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)

لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي، مجموعة من المحققين، طبعة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر.

- **تفسير الطبري** (جامع البيان في تفسيرالقرآن) لأبي جعفر محمد بن جعفر الطبري، دار الكتب العلمية–بيروت، ط الثالثة ١٤٢٠هـ.
- **تفسير الفخر الرازي** (التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، دار الفكر – بيروت.
- **تفسير القاسمي** (محاسن التأويل)، لمحمد جمال الدين القاسمي، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، دار الفكر، بيروت.
- **تفسير القرطبي** (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة مصورة عن دار الكتب، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، طبع وزارة الثقافة ١٣٨٧هـ القاهرة.
- **التفسير الكبير**، لابن تيمية، تحقيق وتعليق د/ عبدالرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م. بيروت – لبنان.
- **تفسير ابن كثير** (تفسير القرآن العظيم) للإمام إسماعيل بن كثير القرشي، المكتبة الشعبية، بدون تاريخ.
- **تفسير ابن كثير.** تحقيق سامي السلامة، الإصدار الثاني، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، نشر وتوزيع دار طيبة، الرياض.
- **تفسير الماوردي** (النكت والعيون) تحقيق خضر محمد خضر، ط الأولى ١٤٠٢هـ، مطابع مقوي – الكويت.

- **تيسير الكريم الرحمن بتفسير الكلام المنان**، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية ١٤١٠هـ.
- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، لابن قيم الجوزية، دار الندوة الجديدة – بيروت ١٤٠٥هـ.
- **جامع الترمذي**، للإمام الترمذي، تحقيق: عادل مرشد، ط الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، دار الأعلام، عَمان – الأردن.
- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، للسمين الحلبي، تحقيق وتعليق مجموعة من المحققين، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م. دار الكتب العملية.
- **سنن الترمذي**، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، مراجعة وتصحيح صدقي محمد جميل العطار، طبع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٤هـ.
- **سنن أبي داود**، طبع ونشر وتوزيع دار الحديث في حمص، سوريا، ط الأولى ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩م.
- **سنن أبي داود**. دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، ط الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- **سنن النسائي مع حاشية السندي**، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، طباعة شركة الطباعة

العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- **صحيح البخاري**، دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- **صحيح البخاري**، بيت الأفكار الدولية، الرياض ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- **صحيح أبي داود** للألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- **صحيح سنن ابن ماجه** للألباني، مكتب التربية العربي.
- **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
- **صحيح مسلم**، بيت الأفكار الدولية، الرياض ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- **عجائب القرآن**، للإمام فخر الدين محمد الرازي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- **فتح الباري**، للحافظ ابن حجر، دار المعرفة للطباعة والنشر.
- **فتح القدير**، للشوكاني، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٨٣هـ.
- **في ظلال القرآن**، لسيد قطب، ط العاشرة ١٤٠٢هـ، دار الشروق – بيروت.
- **الكشاف**، للزمخشري، طبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر – بيروت، بدون تاريخ.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، مطبعة العلوم، بيروت، نشر: دار الكتاب العربي.
- **مجموع الفتاوى** لابن تيمية، مكتبة المعارف، المغرب، الرباط.
- **مدارج السالكين**، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٧٢م.
- **مستدرك الحاكم**، دار الكتب العلمية – بيروت.
- **مسند الإمام أحمد**، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف: شعيب الأرناؤط. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- **مسند الإمام أحمد**، طبعة المكتب الإسلامي.
- **مسند البزار** ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ. مؤسسة علوم القرآن، بيروت.
- **مشكاة المصابيح**، للخطيب التبريزي، تحقيق الألباني، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر – بيروت.
- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، للبوصيري، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، ط الأولى ١٤٠٣هـ، دار العربية للطباعة والنشر.
- **مفردات ألفاظ القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوت عدنان داودي.
- **مفتاح دار السعادة**، لابن قيم الجوزية، دار الكتب

العلمية - لبنان.

- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- **نيل الأوطار**، للشوكاني، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ.
- **الوسيط في تفسير القرآن**، للواحدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤١٥هـ، بيروت.

فهرس الاستغفار

الموضـــــوع ---------- رقم الصفحة
المقدمة ---------- ٣
أهمية الاستغفار وشأنه في حياة المسلم ---------- ٦
أصل كلمة الاستغفار ---------- ١٩
صيغ الاستغفار ---------- ٢١
أوقات الاستغفار ---------- ٣٢
أماكن الاستغفار ----------٤٠
أعداد الاستغفار ---------- ٤٠
معنى الاستغفار في القرآن الكريم ----------٤٤
الاستغفار قول وعمل ----------٤٧
أنواع الاستغفار ----------٤٩
أنواع المستغفرين ---------- ٥٥
استغفار الملائكة للمؤمنين ----------٥٦
استغفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ----------٦٠
استغفار النبي r ----------٦٣
استغفار المؤمنين ----------٦٦
أصناف المحجوبين عن مغفرة الله ----------٦٩

أثر المعاصي والذنوب في الحياة ----------٧٤

الموضـــــوع ---------- رقم الصفحة
حديث القرآن عن الاستغفار ---------- ٨٤
أهمية الرفق بالمذنبين وعدم احتقارهم ---------- ١٤٦
ي العباد عن القنوط من رحمة الله ---------- ١٤٩
فوائد وثمرات الاستغفار ---------- ١٧٠
الخاتمة ---------- ٢٣١
فهرس المصادر والمراجع ---------- ٢٣٣
فهرس الموضوعات ---------- ٢٣٩